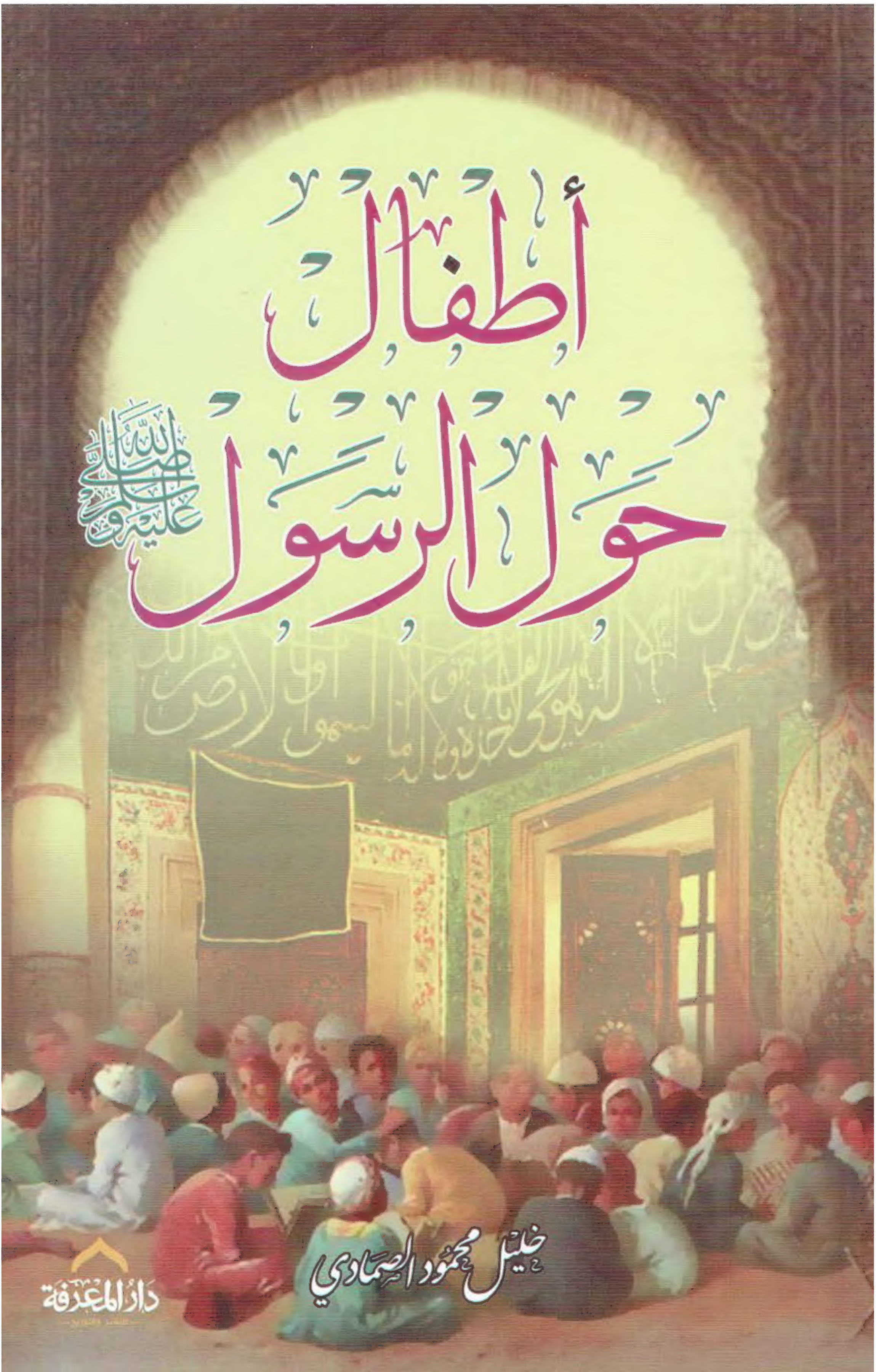

أطفال حول الرسول
صلى الله عليه وسلم
خليل محمود الصمادي
دار المعرفة

أَطْفَالٌ حَوْلَ الرَّسُول

(صلى الله عليه وسلم)

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

رقم الإيداع : 21295 / 2021

الترقيم الدولي : 978 - 977 - 764 - 206 - 4

دار المعرفة

للنشر والتوزيع

خلف الجامع الأزهر بجوار مسجد عليش

٠١٠٠٨٥٨٤٨٢٠ - ٠١١١١٣٣٢٦٦٨ - ٠١١٤١٢١٢٨٠٥

E-mail : elmarefa@hotmail.com

أَطْفَالٌ حَوْلَ الرَّسُول

ﷺ

خليل محمود الصمادي

١٤٤٢هـ/٢٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعَمِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الْهَادِي إِلَى الْمَكْرُمَاتِ.

وَبَعْدُ:

يَظَلُّ جِيلُ الصَّحَابَةِ « رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ » خيرَ الْقُرُونِ، وَتَظَلُّ سِيرَتُهُم العطرة نبراسًا ومشعلًا يُضِيءُ لَنَا الطَّرِيق .

أَيُّ عَظَمة تِلْكَ الَّتِي سطَّرها ذَلِك الجِيل « صغارًا وكبارًا » فِي سِجِلِّ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيم!.

وَأَيُّ بُطُولَةٍ تِلْكَ الَّتِي صَنَعَهَا أُولَئِكَ الصِّغارُ الْميَامِين الْأَبْرَار مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ!.

إِنَّهَا التَّرْبِيَةُ النَّبَوِيَّةُ الْعَظِيمَةُ، وإِنَّها مدرسةُ النبوةِ التي تخرَّجَ فيها نجومٌ اهتدينا بهمْ..

كَتَبْتُ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ، وسطَّرتُ تِلْك الصَّفَحاتِ لأنقلَ لأجيالنا صُورَةً نَاصِعَةً لأطفالٍ وصبيانٍ عُظَمَاء.

كانوا حَولَ الرسولِ، عَاشُوا فِي ظِلَالِ النُّبُوَّة، ونهلوا مِن معينِها، وتربوا فِي مدرستها، وتخرَّجوا رِجَالًا، وَصَنَعُوا البطولاتِ، وَبَنَوا الأَمْجَادَ عَلَى حَدَاثَةِ أسْنَانِهِم..

وَإِنِّي لأسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْفَعَ بِمَا كَتَبْتُ لصِغارِنا، وَأَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ القويمِ، ويقودَهم لِلِاقْتِدَاء بِأُولَئِك النَّفَرِ الصغارِ الَّذِين غَدَوْا عمالقةً فِي التَّارِيخِ تَصْغُر النُّفُوسُ عِنْدَ عَرْضِ سِيرَتِهِم، وتتضاءَلُ الْهِمَمُ أَمَامَ هِمَّتِهِم..

وَالشُّكْرُ لِلْأُستَاذينِ شَمْسِ الدِّينِ دُرْمُش، وأَخِي مُحَمَّد مَحْمُود الصِّمادي اللَّذَيْنِ رَاجَعَا الْكِتَابَ لغةً وَضَبْطًا.

وأرجو أَنْ يكونَ هَذَا الجُهْدُ الْمُتَوَاضِعُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.. إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

خليل محمود الصمادي

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

الْمُعَلِمَ الأَوَّلُ

فِي طُفُولَتِهِ

كَانَ النبيُ محمدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ عَنْ نفسِهِ: أَنَا ابنُ الذَّبِيحَيْنِ!!

فَمَن هُمَا الذَّبيحانِ؟ وَمَا قِصَتُهُمَا؟

الذَّبيحُ الأَوَّلُ هُوَ جَدُّهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِما السَّلامُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِه؛ ثُمَّ فَدَاه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

وَأَمَّا الذَّبيحُ الآخرُ فهُوَ أبوهُ الَّذِي لَمْ يرَهُ، إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فقدْ نَذَرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ نذرًا غريبًا وَهُوَ: إنْ وَهَبَه اللهُ عَشَرَةَ أَبْنَاءٍ فسوفَ يَتَقَرَّبُ إليهِ بِذَبْحِ أَحَدِهِم، فَتَمَّ لَهُ مَا رَجَا، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ عَشَرَةً من البنينَ، فَأَقْرَعَ[1] بَيْنَهُمْ أَيُّهُمْ يَذْبَحُه!؟ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ أَصْغَرِ أَوْلَادِه، وكان أحبَّهمْ إليه، فاحتارَ فِي أمرِهِ، وَاسْتشارَ مَنْ حولَهُ، وجاءَ الحلُّ سريعًا كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ الْحُكَمَاءُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ: يا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ افْدِهِ بِمِئَةٍ مِنَ الْإِبِلِ بدلًا مِنْ ذَبْحِهِ، ووزِّعِ اللَّحمَ عَلَى فقراءِ قريشٍ.

وتمَّ الأمرُ، ونجا عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الْمُطَّلبِ من الذَّبحِ كما نجا نبيُّ اللهِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ قبلُ.

وَلَمَّا كَبِرَ عَبْدُ اللَّهِ خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ لِقُرَيْشٍ إِلَى غَزَّةَ مِنْ بلادِ الشَّامِ، وَفِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ وَصَلَتِ الْقَافِلَةُ إِلَى يَثْرِبَ[2]، وَهُنَاكَ مَرِضَ وَمَاتَ وَدُفِنَ، وَعَادَتِ الْقَافِلَةُ كُلُّهَا إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ الشَّابَّ اليَافِعَ الَّذِي لَمْ يَبْلُغِ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

(١) اقرع بينهم: أي عمل قرعة ليختار واحدًا لا على التعيين.

(٢) يثرب: اسم المدينة المنورة قديمًا.

حَزِنَت آمِنَـةُ عَلَـى زَوْجِهَا، وَحَزِنَ وَالِدُه عَبْدُ الْمُطّلِبِ، وَحَزِنَ إِخْوَتُـهُ وَقَبِيلَتُه عَلَـى الْـمُصَابِ الجَلَلِ، وَصَـارَتِ الأمُّ الْـمِسْكينةُ تَنْتَظِـرُ مولودَهـا بِفَـارِغِ الصَّبْـرِ، تنتظـرُ قدومَ الْـمَولودِ العظيمِ، نَعَمْ.. الْـمَولودُ العظيـمُ.

وضعتْ آمنـةُ مولودَها وَهِـيَ فَرِحـةٌ، وفكَّرتْ أنْ ترسلَهُ إلـى الباديـةِ، وكانَ مِنْ عادةِ قريشٍ أنْ ترسلَ الْمَواليدَ إِلَـى الباديـةِ يرضعُهنَّ مرضعـاتٌ قويـاتٌ، ويستنشقُ الأطفالُ هنـاكَ الهواءَ النّقـيَّ مَعَ الحَليبِ الصَّافـي.

كادَتْ حَلِيْمَـةُ السَّعديـةُ ترجعُ إِلَـى مضاربِ قومِها منْ دونِ رضيعٍ ترضعُـهُ، بَعْدَ أنْ طافَتْ شوارعَ مَكَّـةَ باحثـةً عَنْ طفلٍ ميسورِ الحـالِ لترضعَـهُ، فالنِّسوةُ اللَّاتـي قدِمْنَ معَهَا لَمْ يتركْنَ طفلًا مِنْ أسرةٍ غنيـةٍ إلا أخذنَـهُ، وأمَّا مُحَمَّدٌ الطفلُ الصَّغيرُ فقدْ أعرضْـنَ عَنْـهُ لأنَّـهُ يتيـمٌ، ومـن أسرةٍ فقيـرةٍ.

ولوْ كانَـتْ تدري حَلِيْمَـةُ مَنْ سيكونُ هَذَا الطّفلُ لبحثَـتْ عَنْـهُ واختارتْـهُ دونَ غيرِهِ مِنْ أطفالِ مَكَّـةَ، ولَمَا ترددتْ لحظـةً واحدةً فِـي إرضاعِـهِ ورعايتِـهِ.

فَمُحَمَّدٌ كَانَ عَظِيمًا قَبْلَ أَنْ يُولَدَ، وَهَلْ يَكُونُ الإِنْسَانُ عَظِيمًا وَهُوَ فِـي رَحِمِ أُمِّهِ؟!

نَعَمْ، لَقَدْ كَانَ عَظِيمًا يَوْمَ حَمَلَتْ بِهِ أُمُّهُ!!

فَقَدْ رَأَتْ آمِنَـةُ بِنْـتُ وَهبٍ رُؤْيـا دَلَّـتْ عَلَـى عَظَمَـةِ جَنِينِهَـا الَّذِي يَقْبَـعُ فِـي رَحِمِهَـا.. فَمَـاذَا رَأَتْ يَـا تُرَى؟!

رَأَتْ نُورًا خَرَجَ مِنْهَا وَهِيَ فِي بَيْتِهَا بِمَكَّةَ، أَضَاءَ قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ!!

يَوْمَهَا عَرفَتْ آمِنَةُ أَنَّهَا تَحْمِلُ فِي رَحِمِها مَوْلُودًا عَظِيمًا سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عظيمٌ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ النُّورَ الَّذِي خَرَجَ مِنْهَا أَضَاءَ بُصْرَى وَفَارِسَ وَالْهِنْدَ والصِّينَ وَغَيْرَهَا.

ولحكمةٍ يعلَمُها اللهُ حُرِمَتْ مِنْ هَذَا النُّورِ كما حُرِمَ مِنْهُ أبوهُ عبدُ اللهِ الَّذِي ماتَ وَهُوَ عائدٌ مِنْ أرض الشَّام في يَثْرِبَ ومحمدٌ فِي بطنِ أمِّه لَمْ يرَ النُّورَ بعدُ.. إِلَّا أنَّ نورَهُ سطعَ قبلَ ذلكَ.

لَقَدْ كانَ مُحَمَّدٌ يتيمًا قبلَ أَنْ يولَدَ، وَكَانَتْ أُمُّهُ فقيرةَ الحالِ، ولهذا السَّببِ أعرضَتْ نساءُ بني سَعْدٍ عَنْه، إِلَّا أن الله عَزَّ وَجَلَّ أرادَ أَنْ يُكْرِمَ حَلِيمَةَ السَّعدِيةَ بِهِ.

فقدْ كادَتْ شمسُ ذلكَ اليومِ تغرُبُ ولَمْ تجِدْ حَلِيمَةُ بُغْيَتَها بَيْنَ أطفالِ مَكَّةَ، وكانَ عَلَيْهَا أَنْ تعودَ إِلَى قومِها مَعَ نساءِ قبيلتِها، وكرهَتْ أَنْ ترجِعَ خاوِيَةَ الوِفاضِ فعادَتْ إِلَى بيتِ آمِنَةَ تطلُبُ مُحَمَّدًا بَعْدَ أَنْ رفضَتْهُ فِي أَوَّلِ النَّهارِ، وَهِيَ تقولُ فِي نَفْسِها: (سَأُرْضِعُهُ برغمِ فقرِهِ ويُتْمِهِ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفعَنا بَبركتهِ).. وما كادَتْ تخرُجُ مِنْ شِعابِ مَكَّةَ إِلَّا ورأتِ البركَةَ تتنزَّلُ عَلَيْهَا، وتُحيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ مكانٍ.

فحِمارُها الـهَزِيلُ الَّذِي كانَ آخرَ الرَّكبِ ساعةَ قدمَتْ مَكَّةَ صـارَ أَوَّلَ القافلَةِ يعدو ويسابقُ كُلَّ دابةٍ تسيرُ معَهُمْ.. ومَا أَنْ وَصَلَتْ إِلَى مضـاربِ قومِها حَتَّى عمَّ الخيرُ بيتَها، فبرغمِ الجفافِ والقَحْطِ الَّذِي كانَ فِي تِلْكَ السَّنةِ كانَتْ غُنَيْماتُ حَلِيْمَـةَ تعودُ مِنَ الْـمَرعى تدِرُّ اللَّبنَ، وبقيـةُ الغَنَمِ فِي القبيلـةِ لا تـدِرُّ اللَّبنَ إِلَّا قليلًا.. ورأَتْ حَلِيْمَةُ الخيرَ الكثيرَ ممَّا جعلَها مَوْضـعَ حَسَدٍ مِنْ جِيرانِها، وَكَانَتْ تخْشى الْـحَسَدَ، ولذلكَ حدَّثَتْها نفسُها مِرارًا أَنْ تُرجِعَ الطِّفْلَ لذويـهِ خوفًا عَلَيْهِ مِنْ عيونِ الحاسِدينَ، ولكنَّها كانَتْ تحِبُّ مُحَمَّدًا كثيرًا، ولمَ لا؟.. والخيرُ إِنَّما يأتِيها ببركتِهِ.. ولكنَّها أَصرَّتْ فِي أحدِ الأيامِ أَنْ تردَّهُ إِلَى أُمِّهِ لأنَّـها رأَتْ شيئًا لَمْ ترَهُ مِنْ قبلُ فخافَتْ عَلَيْهِ وعلى نفسِها وقومِها مما رأَتْ!!

فماذا رأَتْ حَلِيْمَةُ؟

كادَتْ لا تصـدِّقُ ابنَها الصَّغيرَ وَهُوَ يَرْوِي لَـهَا ما رأى.. اسْتمعَتْ إِلَـى صغيرِها وَهُوَ يقولُ لَـها: أسرعِي يا أُمِّي وأَنْقذِي مُحَمَّدًا.. هناكَ رَجلانِ نَزَلَا عَلَيْهِ من السَّماءِ يَلبسانِ ثيابًا بيضـاءَ، وَيَحْمِلُ أحدُهُـما سِكينًا، وَقامَا بشَقِّ صـدْرِهِ، وأَخْرجا قَلْبَهُ وَغسَلاهُ فِي طبَقٍ من ذَهَبٍ بماءِ ثَلْجٍ، وأخرجَا منْـهُ شيئًا أسودَ، ثمَّ أعـادا قلبَـهُ كَما كانَ!..

أسرعِي يا أماهُ!.. لقَدْ تركْتُ أخي مُحَمَّدًا هناكَ مُغْمًى عَلَيْهِ.

صرخَتْ حَلِيمَةُ تَسْتَغيثُ بزَوْجِها، وهُرِعا إِلَى الْمَكانِ الَّذِي كانَ فيهِ الأَخوَانِ يرعيانِ غنَمَها، وشاهَدَا مُحَمَّدًا، فضمَّتْه حَلِيْمَـةُ إِلَى صَدْرِها تَسْأَلُهُ: مـاذا حدثَ

لَكَ؟.. فأخبرَها بِالَّذي حدَثَ، فتيقَّنَتْ مِنْ كلامِ ابْنِها الْحَقيقَةَ.

لَمْ تعرِفْ حَلِيْمَةُ النَّومَ فِي تلكَ الليلةِ، فالحادثةُ الَّتِي وقعَتْ صارَتْ تُقْلِقُها، وتجعلُها تفكِّرُ فِي أمرِ هَذَا الغلامِ الصَّغيرِ الَّذِي لَمْ يتجاوزِ الرابعةَ مِنْ عمرِهِ، وقررَتْ أَنْ تشدَّ الرحالَ إِلَى مَكَّةَ عندمَا يتنفَّسُ الصُّبحُ، وفعلًا جهزَتْ راحلتَها وسارتِ إِلَى مَكَّةَ، فوصلَتْ وقرعَتْ بابَ آمِنَةَ بنتِ وهبٍ.

دُهِشَتْ أمُّ مُحَمَّدٍ لِهَذِهِ الزيارةِ الْمُفاجِئةِ، وبَعْدَ أَنْ ضمَّتِ الأمُّ وليدَها سألَتْ حَلِيمَةَ عَنْ سببِ رجوعِها بمحمدٍ فِي غيرِ وقتِهِ، وبَعْدَ إلحاحٍ صارحَتْها حَلِيْمَةُ بما حدثَ لَهُ.

لَمْ تخَفْ آمِنَةُ كثيرًا مِنْ هَذِهِ الواقعَةِ، فكثيرًا ما كانَ يحدِّثُها قلبُها أنَّ لِهَذا الصَّغيرِ شأنًا مِنْ يومِ أضاءَ لَها النُّورُ قصورَ الشَّام وَهُوَ فِي بطنِها.

لَمْ تهنَأْ آمِنَةُ كثيرًا برؤيةِ صغيرِها، ولَمْ تقرَّ عينُ مُحَمَّدٍ بصُحبةِ أُمِّهِ طويلًا، فلقَدْ شاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تموتَ آمِنَةُ فِي طريقِ عودتِها مِنْ زيارةٍ قامَتْ بِهَا إلى أخوالِ زَوْجِها فِي يَثْرِبَ، فعندَ عودتِها مرضَتْ بالأبواءِ قربَ يَثْرِبَ، وماتَتْ، وكانَ معَها مُحَمَّدٌ الطِّفلُ الصَّغيرُ الَّذِي لَمْ يتجاوَزِ السَّادسَةَ مِنْ عُمُرِهِ، ورجعَ حزينًا مَعَ الرَّكْبِ إِلَى مَكَّةَ.

حَزِنَ مُحَمَّدٌ حُزْنًا شديدًا عَلَى فَقْدِ أُمِّهِ، فقَدْ صارَ وحيدًا يتيمَ الأبَوينِ، ولا يوجدُ لهُ أخٌ يلعبُ معهُ..

حملَتْهُ مولاتُهُ أمُّ أَيمَنَ إِلَى جدِّهِ عبدِ الْمُطَّلبِ، فأخذَ يَحُوطهُ بعنايتِهِ ورعايتِهِ، وظهرَ حرصُهُ عَلَيْهِ يومَ أرسلَهُ يومًا فِي أَثَرِ إبِلٍ ضلَّتْ طريقَها، فتأخَّرَ محمدٌ كثيرًا، فأخذَ عبدُ الْمُطَّلبِ يقلِّبُ كفَّيْهِ مُخْتارًا، وبدَتْ عَلَيْهِ علاماتُ الحُزْنِ، ونَدِمَ عَلَى ما فعلَهُ، وأخذَ يبحثُ عَنهُ، ولَمَّا رآهُ عائدًا مَعَ الإبلِ أقسمَ ألَّا يبعثَه فِي حاجةٍ لَهُ أبدًا، وألَّا يفارقَهُ بَعْدَ هَذَا.

كَبِرَ مُحَمَّدٌ قليلًا وبدَتْ عَلَيْهِ علاماتُ الهُدوءِ والاتِّزانِ، وزادَه تعلُّقُ جدِّهِ بِهِ مكانةً بينَ أعمامِه، وصارَ يقرِّبُهُ منهُ، ولا يَدَعُ أحدًا يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَهُوَ نائمٌ، وصارَ يضعُ لَهُ مجلسًا لا يجلسُ عَلَيْهِ غيرُهُ، وكثيرًا ما كانَ يضعُ لَهُ الفراشَ إلى جانبِه فِي ظلِّ الْكعبةِ.

أحبَّ عبدُ الْمُطَّلِبِ أَنْ يخفِّفَ عَنْ مُحَمَّدٍ آلامَ يُتْمِهِ، فأحاطَهُ بالرِّعايةِ والاهتمامِ، وكلٌّ منهما متعلِّقٌ بالآخرِ، ولكِنْ هَذِهِ الْمَحبةُ لَمْ تدُمْ طويلًا، ولَمَّا بلغَ مُحَمَّدٌ الثامنةَ مِنْ عُمُرِهِ ماتَ جدُّهُ عبدُ الْمُطَّلِبِ تاركًا وراءَهُ رَهطًا منَ الأولادِ وحفيدَهُ مُحَمَّدًا اليتيمَ.

أسرعَ عمُّهُ أبو طَالِبٍ لِاحْتِضانِ اليتيمِ الحزينِ، وضمَّهُ إِلَى بيتِهِ، وَعَدَّهُ واحدًا مِنْ أولادِهِ، وعرفَ أبو طَالِبٍ ما يتمتعُ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ آدابٍ وأخلاقٍ رفيعةٍ، فازْدادَ حبًّا لَهُ، ورأى فيهِ خصالًا كريمةً لا يجِدُها فِي أبنائِهِ الكُثُرِ، ولا فِي أيِّ صبيٍّ عرفَهُ، فأخذَ يَحرصُ عَلَيْهِ أكثرَ مِنْ حرصِهُ عَلَى أولادِهِ، وتأكَّدَ مِنْ ذلكَ يومَ حضرَ إِلَى مَكَّةَ رَجُلٌ يدَّعي عِلْم الفِراسةِ، وكانَ مِنْ عادةِ قريشٍ أَنْ تُخْرِجَ

غِلْمانَـها كَـيْ يَراهُمْ هَذَا الرَّجلُ حَتَّـى يتنبَّأَ مَنْ سيكونُ لَـهُ شأنٌ مِنْهُمْ!!

صحبَ أبـو طَالِبٍ أولادَه ومعهُمْ مُحَمَّدٌ إِلَى التجمُّـعِ الحاشدِ، ووصلَ إِلَى مجلسِ العرَّافِ، فما أَنْ رأى مُحَمَّدًا حَتَّى شغلَهُ عَنْهُ شاغلٌ، فَلَمَّا فرغَ قالَ بأعلى صوتِهِ، الغلامَ.. الغلامَ! عليَّ بِهِ.. الغلامَ.. الغلامَ.. عليَّ بِهِ!!

فلَمَّا رأى أبو طَالِبٍ إصرارَهُ عَلَى رؤيتِهِ خافَ عَلَى ابْنِ أخِيهِ، فَطَلَبَ من محمدٍ أَنْ ينصرفَ فِي الحالِ..

وما زالَ العرَّافُ يصرُخُ بأعلى صوتِهِ: ويْلَكُمْ ردُّوا عليَّ الغُلامَ!! فواللهِ ليكونَنَّ لَـهُ شأنٌ..!! فكانَ حديثُ مَكَّةَ يومَها عَنْ مُحَمَّدٍ.

خافَ عَلَيْهِ عمُّه مِنْ أعينِ النَّاسِ، فكانَ لا ينامُ إلا ومحمدٌ قربَه، ولا يخرجُ إلا معَهُ، ولا يأكُلُ إلا عندَما يحضرُ، وكانَ يخُصُّهُ بالطَّعامِ، ويؤثِرُهُ عَلَى نفْسِهِ.

خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ مرَّةً فِي التِّجَارَةِ، مَعَ قَافِلَةٍ كَبِيرَةٍ إِلَى الشَّامِ، فَمَا إِنْ سَارَتِ الْقَافِلَةُ قليلًا حَتَّى لَحِقَ بِهِمْ محمدٌ يَبْكِي، فَرَقَّ قلبُ أَبِي طَالِبٍ لَهُ، وَحَمَلَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَسَافَرَ بِهِ معَ القافلةِ يقْطعُ الْفَيَافِيَ وَالْقِفَارَ فِي اللَّيلِ والنَّهارِ، فَلَمَّا نَزَلَ الرَّكْبُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، وَكَانَ بِهَا رَاهِبٌ يُقَالُ لَهُ: بَحِيرَى فِي صَوْمعةٍ لَه، وَكَانَ إِلَيْهِ عِلْمُ أَهْلِ النَّصْرانِيَّةِ، فَلَمَّا نَزَلُوا ذَلِكَ الْعَامَ هناكَ، وَكَانُوا كثيرًا مَا يَمُرّونَ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَلَا يُكَلِّمُهُمْ، وَلَا يَعْرِضُ لَهُمْ، حَتَّى كَانَ ذَلِكَ الْعَامُ، نَظَرَ بَحِيرَى مِنْ نَافِذَةِ صَوْمَعَتِه فأذْهلَهُ مَا رَأَى..

رَأَى غَمَامَةً فَوْق أَغْصَانِ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا غَيْرَ؛ هِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي يَجْلِسُ تَحْتَهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ.

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ بَحِيرَى أَمَرَ فِتْيَانَه بِصُنْعِ طعَامٍ فَأَعدُّوهُ، ثُمَّ نَزَلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ سريعًا فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي قَدْ صَنَعْتُ لَكُمْ طَعامًا، وأُحِبُّ أَنْ تَحْضُرُوا كُلُّكُمْ؛ كَبِيرُكُمْ وَصَغِيرُكُمْ، وَحُرّكُمْ وَعَبْدُكُمْ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ: وَاللهِ يَا بَحِيرَى، إِنَّ لَكَ لَشَأْنًا الْيَوْمَ! مَا كُنْتَ تَصْنَعُ هَذَا بِنَا، وَقَد كنَّا نَمُرُّ بِكَ كثيرًا، فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ لَهُ بَحِيرَى: صَدَقْتَ، قَدْ كَانَ مَا تَقُولُ، وَلَكِنَّكُم ضُيُوفٌ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أُكْرِمَكُمْ، وَأَصْنَعَ لَكُمْ طعامًا، فَتَأْكُلُوا مِنْهُ كُلُّكُم.

عَجِبَ القُرَشِيُّونَ مِنْ أَمْرِ بَحِيرَى الَّذِي اعْتَزَلَ النَّاسَ! ماذا حصلَ لهُ يَدْعوهمُ اليومَ للطعامِ على غيرِ عادتِه!؟

لبُّوا الدعوةَ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَتَخَلّفَ الغُلَامُ الصَّغيرُ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ، وبقِيَ فِي رِحَالِ الْقَوْمِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

فلَمَّا دخلوا إلى الصَّومعةِ نَظَرَ بَحِيرَى فِي الْقَوْمِ، فلَمْ يَرَ الْغُلَامَ الَّذِي أذهَلَه!!

فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! لَا يَتَخَلّفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ طَعَامِي. قَالُوا لَهُ: يَا بَحِيرَى، مَا تَخَلَّفَ عَنْكَ أَحَدٌ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْتِيَكَ؛ إلّا غُلَامٌ، وَهُوَ أَحْدَثُ الْقَوْمِ

سنًّا، فَتَخَلَّفَ فِي رِحَالِهِمْ، فَقَال: لَا تَفْعَلُوا!.. أُدْعُوهُ فَلْيَحْضُرْ هَذَا الطَّعَامَ مَعَكُمْ.

فَخَرَجَ أَبُو طَالِبٍ، وَأَحْضَر محمدًا، وأجْلسهُ مَعَ الْقَوْمِ، يأكلُ معَهُم.

فَلَمَّا رَآهُ بَحِيرَى جَعَلَ ينظرُ إليه نظرًا شديدًا، وَيَنْظُرُ إِلَى أَشْيَاءَ مِنْ جَسَدِهِ قَدْ كَانَ يَجِدُهَا عِنْدَهُ مِنْ صِفَتِهِ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ الْقَوْمُ مِنْ طَعَامِهِمْ وَتَفَرَّقُوا، قَامَ إِلَيْهِ بَحِيرَى فَقَال: يَا غُلَامُ، أَسْأَلُك عَنْ أشياءَ إِلَّا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ.

فَقَالَ لَهُ محمدٌ: « سلْنِي عَمَّا بَدَا لَكَ ».

فَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ حَالِهِ، مِنْ نَوْمِهِ، وَهَيْئَتِهِ، وَأُمُورِهِ، فَجَعَلَ محمدٌ يُخْبِرُه، فَيُوَافِقُ ذَلِكَ مَا عِنْدَ بَحِيرَى مِنْ صِفَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى ظَهْرِهِ فَرَأَى خَاتَمَ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلَى مَوْضِعِهِ مِنْ صِفَتِهِ الَّتِي عِنْدَهُ.

فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ:

ما يكونُ هَذَا الْغُلَامُ مِنْك؟

قَال: ابْنِي.

قَالَ لَهُ بَحِيرَى: مَا هُوَ بِابْنِك، وَمَا يَنْبَغِي لِهَذَا الْغُلَامِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ حَيًّا.

قَالَ: فَإِنَّهُ ابْنُ أَخِي. قَال: فَمَا فَعَلَ أَبُوهُ؟ قَال: مَاتَ، وَأُمّهُ حُبْلَى بِهِ. قَال: صَدَقْتَ، فَارْجِعْ بِابْنِ أَخِيك إِلَى بَلَدِهِ، وَاحْذَرْ عَلَيْهِ يَهُودَ، فَوَاللهِ! لَئِنْ رَأَوْهُ وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا عَرَفْت لَمَا تَرَكُوه، إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ، فَعُدْ بِهِ إِلَى بِلَادِهِ.

ذُهِل أَبُو طَالِبٍ مِمَّا سَمِعَهُ، وَقَدْ وَقَعَ مَا قَالَهُ فِي نَفْسِهِ وَقَلْبِه، فَأَسْرَعَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ تَارِكًا الْقَافِلَةَ وَمَا تَحْمِلُ.

كَبِرَ مُحَمَّدٌ فِي بيتِ عمِّهِ، وكبِرَتْ معهُ الفَضائلُ والأخْلاقُ، واستفادَ مِنْ صُحْبةِ عمِّهِ لَهُ، ومِنْ مجالسةِ العقلاءِ والحكماءِ. فلَمَّا بلغَ عَشْرَ سنِينَ زادَتْ حالةُ أبِي طَالِبٍ فقرًا وبؤسًا لكثرةِ عيالِهِ، ولقَحْطِ السِّنينَ، فَفكَّرَ مُحَمَّدٌ فِي مساعدتِهِ، فطلبَ مِنْه أنْ يرعَى لَهُ الغنمَ فِي بِطاحِ مَكَّةَ، فرفضَ أبو طَالِبٍ الفِكْرةَ فِي بادئِ الأمرِ، ولكنَّه سمحَ لَهُ بَعْدَ إلحاحٍ وإصرارٍ عَلَى مساعدتِهِ.

صارَ مُحَمَّدٌ يذهبُ كُلَّ يومٍ مَع غُنَيْماتِهِ صباحًا، ويعود مَعَ غروبِ الشَّمسِ وَهُوَ مسرورٌ منَ العملِ الَّذِي يقومُ بِهِ.

عاشَ مُحَمَّدٌ طفولتَهُ وصِباهُ وشَبابَهُ في أكنافِ عمِّهِ أبِي طَالِبٍ، وكانَ كُلَّ حينٍ تَظْهرُ للناسِ منهُ صفاتٌ جديدةٌ؛ مِنْ صِدْقٍ، وأمانةٍ، وكرمٍ، ومروءةٍ، وغيرها من مكارمِ الأخلاقِ، ويبتعِدُ عَنْ عاداتِ العربِ السَّيئةِ، حَتَّى عُرِفَ بينهُمْ بالصَّادقِ الأمينِ.

كانَ دائمَ التَّفكيرِ فِي الْحياةِ والكونِ، يخرجُ أكثرَ الأوقاتِ بَيْنَ شعابِ مَكَّةَ مُتأَمِّلًا مُتفكِّرًا بآياتِ اللهِ وعظمتِهِ حَتَّى اختارَهُ اللهُ نبيًا ورسولًا ورحمةً للعالمينَ.

***

التِّلْمِيذُ الأَوَّل

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)

بَطَلٌ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ بَعْدُ، قَوِيٌّ أَقْوَى مِنَ الرِّجَالِ، حَكِيمٌ وَمَا شَابَتْ شَعْرَةٌ فِي رَأْسِهِ، صادِقُ العزيمةِ، أَمِينٌ لِأَنَّهُ أَخَذَ دُرُوسَه الأُولَى من مدرسةِ النُّبوةِ عندما كانَ الطالبَ الأولَ فيها، وكانَ أُستاذَهُ محمدٌ الصَّادِقُ الأَمِينُ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ.

وَهُوَ مَعَ كُلِّ هَذِهِ الْفَضَائِلِ لَمْ يسْجُدْ فِي حَيَاتِهِ لِصَنَمٍ قَطُّ، كما كانَ يفْعلُ أكثرُ العَربِ في مَكَّةَ وغيرِهَا.

فِي أَطْهَرِ بَيْتٍ نَمَا وترعرعَ.. تنشَّقَ الصِّدْقَ، ونَهَلَ الأَمَانَةَ، وَتَغَذَّى بِغِذَاء الرُّوحِ؛ ألا وَهُوَ الإِيمَانُ.

نَشَأَ عليٌّ فِي بَيْتِ ابْنِ عَمِّهِ سَيِّدِ الْخَلْقِ، وَكَمَا تَرَبَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي مِثْلِ سِنِّهِ فِي بَيْتِ أَبِي طَالِبٍ أَحَبَّ أَنْ يَرُدَّ بَعْضَ الْجَمِيلِ لِعَمِّه؛ فَأَخَذَ عليًّا عِنْدَه لِيُخَفِّف عَنْ عَمِّهِ عِبْءَ وَاحِدٍ مِنْ عِيَالِهِ الكُثُرِ.

وَمِنْ زَوَايَا بَيْتِ النُّبُوَّةِ يُشاهَدُ عليٌّ راكِعًا ساجِدًا قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ مُعْظَمُ النَّاسِ لِلْوَاحِدِ الأَحَدِ.. ويشاءُ اللهُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مُسْلِمٍ مِنَ الْفِتْيَانِ الصِّغارِ، فَحُبُّهُ لِلرَّسُولِ ﷺ جَعَلَه يَدْخُلُ في الإِسْلَامِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي لِلدَّعْوَةِ.

وَكَم كَانَ عُمْرُهُ آنذاكَ؟

عَشْرَ سَنَوَاتٍ!!

يُسْلِمُ الصَّبِيُّ الصَّغِيرُ، وَيَتَعَلَّمُ التَّوْحِيدَ والقرآنَ سرًّا خوفًا مِنْ أَبِيهِ الَّذِي مَا لَبِثَ أَنْ عَلِمَ بِإِسْلَامِ وَلَدِه.. فَمَاذَا فَعَلَ؟!

هَل ضَرَبَه وأرغَمَهُ عَلَى تَرْكِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُحَارِبُ دِينَ آبَائِهِمْ وأجْدادهِمْ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ بِأَبْنَائِهِمْ وأقربائِهِمْ وذويهِمِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا النَّبِيَّ الأَمِينَ.. وَهَلْ مَنَعَهُ مِنَ الذِّهَابِ إِلَى بَيْتِ ابْنِ عَمِّهِ؟!

لَا.. لَمْ يَفْعَلْ أَبُو طَالِبٍ شيئًا مِنْ هَذَا!!

لَقَد سُرَّ أَبُو طَالِبٍ بِإِسْلَامِ ابْنِهِ، وشجَّعهُ أَيَّمَا تَشْجِيعٍ.. لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مِنْ قبْلُ أَخْلَاقَ ابْنِ أخيهِ مُحَمَّدٍ، وَيعلَمُ من فَضائِلِهِ الشَّيءَ الْكَثيرَ، وَلِأَنَّهُ كَانَ يُلَاحِظُ تَغَيُّرًا فِي تَرْبِيَةِ ابْنِهِ نَحْوَ الأَفْضَلِ.. لَاحَظَ الشَّجَاعَةَ وَالْفَصَاحَةَ والأدبَ، وحُسْنَ التَّعامُلِ معَ الآخرينَ، لاحظَ كلَّ ذلكَ، وَكَانَ مسرورًا جدًّا مِنْ هذا!!

ولعلَّ سائلاً يَسْأَلُ: ولَمَّا رأى أبو طالبٍ هذا الحقَّ فلِمَ لَمْ يدخُلْ في الإسلامِ كما فعلَ بعضُ النَّاسِ؟

والجوابُ: كانَ أبو طالبٍ زَعيمًا لبَنِي هاشِمٍ، وخَشِيَ مِنْ رِدَّةِ فِعْلِ قَومِهِ، فَبَقِيَ على شِرْكِهِ.. وهُوَ مَعَ هذا بَقِيَ يحبُّ محمَّدًا والْمُسلِمِينَ، ويردُّ عنهُمْ مِنْ أذى قُرَيشٍ.

كَانَ عَلِيٌّ «رَضِيَ اللهُ عَنهُ» مِنْ أَشْجَعِ فِتْيَانِ قُرَيْش وأَفْصَحِهِمْ وَأَتْقَاهُمْ.. وَالأَدِلَّةُ عَلَى شَجَاعَتِهِ كَثِيرَةٌ، وَأَبْرَزُهَا تِلْكَ الْحَادِثَةُ الَّتِي اشْتُهِرَ بِهَا:

لَقَدِ اشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ نَفِدَ صَبْرُهَا، وَجُنَّ جُنُونُهَا، ولاسِيَّما بعدَ وفاةِ أبي طالِبٍ، فَاجْتَمَعَ سَادَتُهَا في «

دارِ النَّدوةِ »، وقَرَّرُوا قَتْلَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وَالتَّخَلُّصَ مِنْ دَعْوَتِهِ.

عندهَا جاءَ الأمرُ السَّماويُّ بالهِجْرةِ إلى يَثْرِبَ!..

ولكِنْ كيفَ السَّبيلُ إلى الهِجْرةِ وعُيونُ الْمُشْركينَ ترصُدُ مَنْ بقيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ في مَكَّةَ!؟ فَلَا بدَّ من خُطَّةٍ مُحْكَمةٍ يهاجرُ فيها الرَّسُولُ وأبو بَكرٍ مِنْ دُونِ أنْ تَشعُرَ قُرَيْشٌ بذلكَ!!

تَطَوَّعَ الْفَتى الشُّجَاعُ (عليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ) بِأَنْ يَنَامَ فِي فِرَاشِ الرَّسُولِ ﷺ، وارْتَدى بُرْدَتَهُ الْخَضْرَاءَ لِيُوهِمَ قريشًا بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَائِمٌ فِي فِرَاشِهِ، بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ فِي طَرِيقِ هِجْرَتِه نَحْوَ يَثْرِبَ (الْمَدِينَةِ) معَ أحبِّ النَّاسِ إليهِ.

وَقَفَ أَرْبَعُونَ شابًّا مِنْ شَبَابِ قُرَيْشٍ الأشدَّاءِ عَلَى بَابِ بَيْتِ الرَّسُولِ يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ لينقضُّوا عَلَيْهِ بِسُيُوفِهِمْ؛ حَتَّى يتفرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ فَلا تَسْتَطِيعُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الثَّأْرَ مِنْ كُلِّ الْقَبَائِلِ، فَتَقْبَلُ بِالدِّيَةِ[1].

نَفِدَ صبْرُ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ، وَكَادَتِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ، وَلَمْ يَخْرُجِ الرَّسُولُ ﷺ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ مَنْ خَصَاصِ[2] الْبَابِ فَيَظُنُّونَ أَنَّ الَّذِي يَتَقَلَّبُ فِي الْفِرَاشِ محمدٌ!.. عِنْدَهَا قَرَّرُوا مُداهَمَةَ الْبَيْتِ، وَقَتْلَهُ فِي فِرَاشِهِ، وَتَنْتَهِي الْمُشْكِلَةُ الَّتِي أَرَّقَتْهُمْ، وأذهَلَتْ أَلْبَابَهُمْ وَعُقُولَهُمْ.

وَمَا إِنْ سَمِعَ عَلِيٌّ أَصْوَاتَهُمْ تَعْلُو أمامَ الْبَيْتِ حَتَّى نَهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ شامِخًا كَالأَسَدِ صارخًا بِهِم: مَاذَا تُرِيدُونَ أَيُّهَا الأَوْغَادُ؟!

(١) الدية : المال الذي يدفعه القاتل لأهل القتيل.

(٢) خصاص : ثقوب

وَكَم كَانَتْ خَيْبَتُهُمْ عَظِيمَةً مِنْ هَذَا الْوَهْمِ الَّذِي شَرِبُوهُ طِيلَةَ اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ! فَجَرُّوا أَثْوَابَ الْهَزِيمَةِ، وَرَجَعُوا صَاغِرِينَ مَقْهُورِينَ، وَلَكِنَّهُمْ مِنْ شِدَّةِ غيظِهِمْ اعْتَقلوا الْفَتَى اليافعَ، وَأَخَذُوه إِلَى الْكَعْبَةِ، وَهُنَاكَ أَوْسَعُوهُ ضَرْبًا حَتَّى يَعْتَرِفَ أَيْنَ ذَهَبَ ابْنُ عَمِّهِ!؟ وَبَعْدَ مدَّةٍ أَفْرَجُوا عَنْه لِأَنَّهُم عَجَزُوا عَنْ أنْ يأخُذوا منهُ شيئاً.

لَمْ يَسْتَطِعْ عليٌّ الْبَقَاءَ فِي مَكَّةَ بعيدًا عَنْ حَبِيبِهِ وَمُعَلِّمِهِ، فَبَعْدَ أَنْ أَدَّى الْأَمَانَاتِ لِأَصْحَابِهَا كَمَا طَلَبَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ جَهَّزَ رَاحِلَتَهُ لِيَلْحَقَ بِحَبِيبِه الْمُصْطَفَى ﷺ وبصحبتِهِ الْفَوَاطِمُ الثَّلَاثُ: (أُمَّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ، وَعَمَّتُه فَاطِمَةُ بِنْتُ الزُّبَيْرِ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ الرَّسُولِ ﷺ)، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ لَحِقَ بِهِ ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيُثْنوه عَنْ هِجْرَتِهِ ولِيَمْنعُوه عَنْ عَزْمِهِ بِالْقُوَّةِ، فتبارزَ مَعَهُمْ وغلبهمْ، وَتَابَعَ هِجْرَتَهُ بَعْدَ أَنْ فَرَّ الْمُشْرِكُونَ مُنْهَزِمِينَ.

وَتَظْهَرُ شَجَاعَتُه مَرَّةً أُخْرَى فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَقَدْ كَانَ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْأَوَائِلِ الَّذِين بَدَؤوا الْمَعْرَكَةَ، فَاخْتَارَه الرَّسُول ﷺ بِالِاسْمِ، قائلاً: قُمْ يا عليُّ! مَعَ عَمِّكَ حَمْزَةَ، وعُبَيْدَةَ بْنِ الحارثِ، لِمُبارزةِ ثلاثةٍ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ هُمْ شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدُ بنُ عُتْبَةَ، فَبَارَزَ عليٌّ الْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ فَمَا لَبِثَ أَنْ صَرَعَه، ثُمَّ كَرَّ عَلَى أَبِيهِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَصَرَعَهُ أَيْضًا بِمُسَاعَدَة عَمِّهِ حَمْزَةَ.. وَهَكَذَا تَتَوَالَى الشَّجاعاتُ وَالبُطُولاتُ. وَفِي كُلِّ غَزْوَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ يَكُونَ مَعَ الطَّلِيعَة، مَعَ الْأَبْطَالِ الْمَيَامِينِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْخَوْفَ، ولا الْوَجَلَ.

فَفِي أُحَدٍ كَانَ بطلًا ثَبَتَ مَعَ الثَّابِتِينَ، وَفِي الْخَنْدَقِ كَانَ عاملًا يحفرُ الخندقَ معَ الْمُسلِمِيْنَ مخلِصًا ومدافِعًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ، واسْتَطَاعَ يومَها أَنْ يَسُدَّ ثَغْرًا هَامًّا بَعْدَ أَنِ اخْتَرَقَتْهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَيْنَهُمْ أَحَدُ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ (عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ العامِرِيُّ)، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأَرْعبَ بِقَتْلِهِ مَنْ مَعَهُ ففَرُّوا مَذْعُورِيَن.

وَفِي بَنِي النَّضِيرِ اسْتَدْعَى الْيَهُودُ أَحَدَ رُمَاتِهِمِ الْمَشْهُورِينَ، وَاسْمُه (غَزُول)، وَكَان راميًا أعسرَ قويًا، يَبْلُغُ نَبْلُهُ مَا لَا يَبْلُغُهُ نَبْلُ غَيْرِه، فَطَلَبَ بَنُو النَّضِيرِ مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَ خَيْمَةَ الرَّسُولِ ﷺ هدفًا لنبالِهِ فَفَعَلَ، وَأَخَذَتْ نِبَالُ هَذَا الْيَهُودِيِّ تَتَسَاقَطُ عَلَى خَيْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِنَقْلِ مَقَرِّ قيادتِهِ إِلَى مَكَانٍ يَكُونُ فِي مَأْمَنٍ مِن نِبالِ هَذَا الْيَهُودِيِّ.

أَمَّا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يَثْأَرَ مِنْ هَذَا الْيَهُودِيِّ، فتتبَّعَهُ وراقبَهُ حَتَّى رَآهُ يَخْرُجُ مِنَ الْحِصْنِ معَ عَشَرَةٍ مِنْ فُرْسَانِ بَنِي النَّضِيرِ وشُجْعانِهِمْ بُغْيَةَ مُبَاغَتَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّيْلِ مِنْهُم.

فَقَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْفَوْرِ بِنَصْبِ كَمِينٍ لغَزولٍ وَأَصْحَابِهِ، وَاشْتَرَكَ فِي هَذَا الْكَمِيْنِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَأَبُو دُجَانَةَ.. وَوَقَعَ الْيَهُودُ فِي الْكَمِينِ، فَشَدَّ عَلِيٌّ عَلَى غَزُولٍ فأرداهُ قتيلًا، وَقَتَلَ أَبُو دُجَانَةَ وَأَصْحَابُهُ بَقِيَّةَ الْيَهُودِ الْعَشَرَةِ.

وَفِي بَنِي قُرَيْظَةَ تَوَلَّى عَلِيٌّ مَعَ الزُّبَيْرِ معاقَبَةَ اليهودِ، وَبلَغَ عَدَدُهُمْ ثَمَانَمِئَةٍ

مُقَاتِلٍ بَعْدَ أَنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ الرَّسُولِ ﷺ، نَتِيجَةً لغدرِهِمْ وخيانتِهِمْ.

وَفِي خَيْبَرَ الَّتِي اسْتَعْصَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْبِدَايَةِ كَانَ لَهُ دَوْرُهُ الْمُمَيَّزُ، حَيْنَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غدًا رجلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ).. وفي الْغَدِ اجْتَمَعَ الصَّحَابَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ... كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، حَتَّى إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (مَا أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ)، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عليًا، وَسَلَّمَهُ الرَّايَةَ وَدَعَا لَهُ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ خَيْبَرَ وما حَوْلَها.

وَحَدَثَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَنْ كَبَتْ فَرَسُهُ، وسَقَطَتْ عَلَى الأَرْضِ، وَحَاوَلَ أَحَدُ الْيَهُودِ طَعْنَهُ إِلَّا أَنَّهُ اتَّقَى طَعْنَتَهُ بِبَابٍ حَدِيدِيٍّ ثَقِيلٍ اقْتَلَعَهُ وتترَّسَ[1] بِهِ، ثمَّ بارزَهُ أَحَدُ شجعانِ الْيَهُودِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ يُقَالُ لَهُ: (مَرْحَبٌ)، فأرداهُ قتيلاً، وبعدَهَا انْهَزَمَ اليهودُ شرَّ هزيمَةٍ.

•••

(١) تترس به : جعله واقيًا له كالترس.

الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ

في الروضةِ الشريفة

وُلِدَ الْحَسَنُ قَبْل الْحُسَيْنِ بِعَامٍ وَاحِدٍ، وَنَشَأَ الصَّغيرانِ فِي بَيْتِ جَدِّهِمَا الْعَظِيم ينهلانِ الْحِكْمَةَ وَالتَّقْوى مُنْذُ نُعُومَةِ أظْفارِهما.

أَحَبَّهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حبًّا عظيمًا، وَكَيْفَ لَا يُحِبُّهُمَا هَذَا الْحَبَّ الْخَاصَّ وَهُمَا ابْنَا أَعَزِّ النَّاسِ عِنْدَهُ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ شَبَهًا بِهِ.

فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يرعَاهُما ويُداعبُهما كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ فُرْصَةٌ بِذَلِك، وَكَم أَدْخَلَ السُّرُورَ عَلَى قلبيْهِما! وَكمْ رَسَمَ البَسْمَةَ عَلَى وَجْهَيْهِمَا!.

فَكَمْ مِنْ قُبْلَةٍ طبَعَها رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى جَبِينَي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ انْتَشَرَ عَبيرُها فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ.!!

وَكَمْ مَرَّةٍ داعَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِبطَيْهِ(١) وَتَرَكَهُمَا يَسْرحانِ ويَمْرحانِ وعيْنُهُ الشَّرِيفةُ تُراقبهُما بِكُلِّ حُبٍّ وَأَمَلٍ .

فَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُؤَدِّي صَلَاتَهُ فَأَحَبَّ الطِّفْلانِ أَنْ يُداعِبا جدَّهُمَا، فَأَخَذَا يَلْعَبَانِ ويَدورانِ حَوْلَه وَهُمَا فِي غَايَةِ السُّرُورِ، وَحَاوَلَ أَحَدُهُمَا أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ رِجْلَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ، وَمَا إِنْ شَعَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ بِذَلِكَ حَتَّى فرَّجَ لَهُ فَدَخَلَ ضَاحِكًا وَلَحِقَ بِهِ أُخُوهُ. وَمَا إِنْ سَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُطْمَئِنًا خاشعًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَعَرَ بِثِقَلٍ عَلَى ظَهْرِهِ، وسمعَ ضِحْكاتٍ تَتَعَالَى وَصَيْحاتٍ بَرِيئَةً، عِنْدَهَا أَحَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَتْرُكَ الطِّفْلَيْنِ يَستمتعانِ بِمَا هُمَا فِيهِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ برهةً حَتَّى انْتَبَهَ الصغيرانِ مِمَّا هُمَا فِيهِ، فَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ أَخَذَهُمَا

(١) السّبط : ابن البنت

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَوَضَعَهُمَا فِي حِضْنِهِ وَقَالَ: (مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ هَذَيْن).

كانَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ لَا يَهْنَآنِ مَا لَمْ يُشاهِدَا جَدُّهُمَا، فَكُلَّما غَابَ عَنْهُمَا أَخَذَا يَبْحثانِ عَنْهُ، فَفِي يومٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمَعِ وَعِنْدَ الصَّلَاةِ بَحثًا عَنْهُ فَلَمْ يَجِدَاهُ، وفطِنَا إِلَى وُجُودِهِ فِي الْمَسْجِدِ فَأَسْرَعَا إِلَيْهِ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ حاشدًا بِالْمُسْلِمِينَ يَسْتَمِعُون خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاخترقاَ الصُّفُوفَ يُحَاوِلَانِ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْتَدِي قميصًا أَحْمَرَ اللَّوْنِ، وفَجَأَةً تَعَثَّرَ أَحَدُهُمَا وَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ فَبَكَى كِلاهُمَا، فَرَآهُما النَّبِيُّ ﷺ، فَرَقَّ قَلْبُه لَهُمَا، فَنَزَلَ مِنَ الْمِنْبَرِ وَوَصَلَ إِلَيهِمَا وَحَمَلَهُمَا، وَصَعِدَ بِهِمَا الْمِنْبَرَ، وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَتَمَّ الْخُطْبَةَ.

كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّون مَا يُحِبُّ الرَّسُولُ ﷺ، وَيَكْرَهُونَ مَا يَكْرَهُ.. فَصَارُوا يَتَسابَقُونَ عَلَى مَحَبَّةِ سِبْطَيْهِ الصغيرينِ.. فَهَذَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَخْرُجُ يومًا مِنَ الْمَسْجِدِ، وَيَرَى الْحَسَنَ يَلْعَبُ مَعَ أَقْرَانِهِ[1]، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ حَمَلَهُ عَلَى عنقِهِ، وَسَارَ بِهِ إِلَى أَبِيهِ عَلِيٍّ، وَهوَ يقولُ ممازحًا: إنه (..شَبيهٌ بِالنَّبِيّ، ليسَ شَبيهًا بِعَلِيّ)[2]، وعليٌّ يَضْحَكُ مَسْروراً.

لَمْ تَكْتَمِلْ فَرْحَةُ الحسنِ والحسينِ كثيرًا مَع جَدِّهِمَا الْكَرِيمِ، فَمَا إِنْ بَلَغَ الْحَسَنُ ثَمَانِيَ سَنَوَاتٍ، وَالْحُسَيْنُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ حَتَّى انْتَقَلَ الرَّسُولُ ﷺ؛ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى.

وَحَزِنا عَلَيْهِ حُزْنًا شَدِيدًا، وَكَادَ الْمُصَابُ أَنْ يُحَطِّمَ قلبَيْهِما الصَّغِيرَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا صَبَرَا لِأَنَّ الصَّبْرَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَادَا أَنْ يَنْسَيَا مُصَابَهُما حَتَّى تُوُفِّيَتْ أُمّهُمَا فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَفَاةِ أَبِيهَا الرَّسُولِ ﷺ.

(١) أقرانه: في مثل عمره.

(٢) رواه الإمام أحمد.

مَا أَصْعَبَهُ مِنْ مَوْقِفٍ! الْجَدُّ العطوفُ انْتَقَلَ إِلَى جِوارِ ربِّهِ، وَالْأُمُّ الحَنُونُ لَحِقَتْ بِأَبِيهَا، وَكَانَ الْعَزَاءُ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ بَقَاءَ وَالِدِهِمَا بِجَانِبِهِما، وَالَّذِي عَلَّمَهُمَا الصَّبْرَ وَالشَّجَاعَةَ، وَصَارَ يُواسِيهِما بِذِكْرِ سِيرَةِ جَدِّهِمَا عِنْدَمَا كَانَ فِي سِنِّهِمَا يَوْمَ فَقَدَ أُمَّهُ، ثُمَّ جَدَّهُ.

صَارَ الغُلامانِ فِي سِنِّ التَّمْيِيزِ، فَوَاظَبَا عَلَى حُضُورِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَ أَبُوهُمَا يُعَلِّمُهُمَا القرآنَ وآدَابَ الإِسْلَامِ وَالفِقْهَ والشَّجاعةَ.

ذَات يَوْمٍ دَخَلَ الغلامانِ إِلَى الْمَسْجِدِ ليصلِّيَا فَشَاهَدَا رجلًا لَمْ يُحْسِنْ وُضُوءَهُ.. قَالَ الْحَسَنُ مُنَبِّهًا أَخَاهُ الْحُسَيْنَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يُحْسِنِ الْوُضُوءَ!! فَقَالَ الْحُسَيْنُ: حَقًّا، وَلَكِنْ كَيْفَ نُنَبِّهُهُ؟!

قَالَ الْحَسَنُ: لَوْ أَنَّنَا واجَهْنَا الرَّجُلَ بِخَطَئِهِ فَلَرُبَّمَا يَسْتَعْظِمُ ذَلِكَ مِنْ غُلامَيْنِ صَغِيرَيْنِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾.(النحل: ١٢٥)

قَالَ الْحُسَيْنُ: فَمَا الْعَمَلُ؟!

فَكَّرَ الْحَسَنُ وَقَالَ: نَأْتِي بِحِيلَةٍ لَطِيفَةٍ كَيْ لَا يَشْعُرَ بِالْحَرَجِ.. ندَّعي أَنَّنَا مُخْتَلِفَانِ فِي الْوُضُوءِ، وَنَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَنَا. قَالَ الْحُسَيْنُ: نِعْمَ الرَّأْيُ يَا أَخِي، هَلُمَّ إِلَى الرَّجُلِ.

مَضَى الغُلامانِ إِلَى الرَّجُلِ فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: يَا عَمَّاهُ! أَوَدُّ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنَنَا فِي وُضُوئِنَا لِأَنَّنَا اخْتَلَفْنَا فِي صِحَّتِهِ. فَشَرَحَا لِلرَّجُل كَيْفَ تَوَضَّأَ كُلٌّ مِنْهُمَا، وَمَنْ

هُوَ أَصَحُّ، عِنْدَهَا تَنَبَّهَ الرَّجُلُ إِلَى خَطَئِهِ فَشَكَرَهُمَا وَأَعَادَ وُضُوءَهُ.

وَلَمَّا كَبِرَا قليلًا أَحَبَّا أَنْ يُشَارِكَا فِي الجهادِ مَعَ جَيْشِ أُسَامَةَ فانْتَظَمَا فِي جَيْشِهِ، فَنَظَرَ أُسَامَةُ إِلَيْهِمَا وَأَخْرَجَهُمَا لِصِغَرِ سِنِّهِمَا، وَحَاوَلا مِرَارًا أَنْ يقْنِعَاهُ وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُفْلِحَا. وَانْطَلَقَ الْجَيْشُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ وعُيُونُهُمَا الدَّامِعَةُ تُودِّعُه وَتَدْعُو لَهُ بِالنَّصْرِ الْمُؤزَّرِ. وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ انطَلَقَا فِي التَّدْرِيبِ عَلَى الفُرُوسِيَّةِ وَالْقِتَالِ اسْتِعْدادًا لِلْمَعارِكِ القَادِمَةِ، لِأَنَّهُمَا سَيُصبِحانِ كَبِيرَيْنِ، وَلَمْ تَكُنْ لِلْقَائِدِ حُجَّةٌ فِي إِرْجاعِهِمَا، وَكَانَ لَهُمَا مَا تمنَّيَا، فَلَمْ يَتْرُكَا معركةً أَو فَتْحًا إِلَّا كَانَ لَهُمَا السَّبْقُ فِيهِ.

إِنَّهُمَا شِبْلانِ شُجاعانِ تَرَبَّيا فِي أَطْهرِ بَيْتٍ، وَأَفْضَلِ مَسْجِدٍ. وَجَعَلَا سِيرَتَهُمَا نورًا تَسْتَضِيءُ بِها الأجيالُ القادمةُ.

***

الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ

عريفُ الصفِّ

أَحَبَّتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْ يَكُونَ ابنُها بطلاً يَتَحَمَّلُ الصِّعَابَ كُلَّهَا، وأنْ يَنْشَأَ نَشْأَةً قَاسِيَةً، فكثيراً مَا كَانَتْ تَقْسُو عَلَيْهِ فِي طُفُولَتِهِ كَيْ يَتَحمَّلَ مَا لَا يَتَحَمَّلُهُ إِلَّا الرِّجَالُ الأَشِدَّاءُ، لِذا لَمْ يَعْرِفِ الزُّبَيْرُ الدَّلَالَ وَالرِّقَّةَ يوماً مَا، بَل عَرَفَ الْحَيَاةَ القَاسيةَ بِكُلِّ مَا فِيهَا، فَقَدِ اشْتَرَتْ لَهُ أُمُّهُ جواداً خاصاً ليتَدَرَّبَ عَلَيْهِ الفُرُوسِيَّةَ وَفُنُونَ الْقِتَالِ في أطْرافِ مكَّةَ، كَمَا كَانَ يَتَدَرَّبُ عَلَى الْمُبَارَزَةِ، وَرَمْي النِّبَالِ.

فِي هَذَا الجَوِّ البُطُولِيِّ شَبَّ الزُّبَيْرُ، وَصَارَ ابْنَ خَمْسَةَ عَشَرَ رَبِيعاً، يَوْمَ انْشَرَحَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ، يَوْمَهَا حَدَّثَهُ الصِّدِّيقُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَاسْتَمَعَ إِلَيْه بِقَلْبٍ واعٍ، ثُمَّ اتَّفَقَ مَعَهُ أَنْ يَلْتَقِيَا مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ ابْنِ خَالِهِ عبد اللهِ بن عبد الْمُطلبِ، ليعلن إسْلَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

أَسْلَمَ الزُّبَيْرُ، وَبَايَعَ الرَّسُولَ ﷺ، وَشَهِدَ للهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَلِمُحَمَّدٍ بِالرِّسَالَةِ، وَكَانَ رَابِعَ أَوْ خَامِسَ مَنْ أَسْلَمَ، وَلَمْ يُخْفِ إِسْلَامَهُ، فَقَدْ نَشَأَ بطلاً فَارِساً لَا يَخْشَى فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

وانْتَشَرَ خَبَرُ إِسْلَامِهِ فِي مَكَّةَ سَرِيعاً، فاسْتشَاطَ عَمُّه نَوْفَلٌ غَضَباً، وَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: كَيْفَ يَصْبَأُ[1] ابْنُ أَخِي؟ هَلْ مَسَّهُ جُنُونٌ..؟!

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ قَصَدَ بَيْتَهُ، فَلَمَّا جَلَسَ مَعَهُ أَخْفَى غَضَبَهُ، وَأَخَذَ يُلَايِنُهُ فِي الْحَدِيثِ كي يُقْنِعَهُ بتركِ الْإِسْلَامِ، وَأَخَذَ يذَكِّرُهُ بأصْنامِهِمْ .

(١) صبا: ترك دِينَ آبائه ودان بدين آخَرَ.

فَمَا كَانَ مِنَ الزُّبَيْرِ إِلَّا الرَّفْضُ لِكُلِّ مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ عَمُّهُ، وَصَمَّمَ عَلَى السَّيْرِ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ.

لَمَّا رَأَى نَوْفَلٌ إِصْرَارَ ابْنِ أَخِيهِ أَخَذَ يُهَدِّدُهُ ويُرْهِبُهُ، فَمَا لَانَتْ لِلزُّبَيْرِ قَنَاةٌ، وَمَا اسْتَكَانَ لوَعِيدٍ، بَلِ ازْدَادَ إِصْراراً عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ.

عِنْدَهَا قَامَ نَوْفَلٌ وَقَيَّدَ ابْنَ أَخِيهِ، وَأَخَذَ يَكِيلُ لَهُ الشَّتَائِمَ، ولَفَّهُ فِي حَصِيرَةٍ وَأَشْعَلَ النَّارَ وَقَرَّبَهَا مِنْهُ، وَصَارَتْ تنفُثُ الدُّخَانَ الْكَثِيفَ حَتَّى صَارَ الزُّبَيْرُ لَا يَرَى، فالدُّخانُ يَلُفُّهُ، وَصَوْتُ عَمِّه يُنَادِي: اكْفُرْ بِرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَيَتَصَاعَدُ صَوْتُ الزُّبَيْرِ جَهُورِياً قَوِيًّا، وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ سُحُبِ الدُّخَانِ بِقَوْلِهِ: اللهُ أَكْبَرُ.. لَا، لَنْ أَعُودَ إِلَى الْكُفْرِ.

لَمْ يَكُنِ الزُّبَيْرُ ضَعِيفاً، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُوَقِّر عَمَّهُ، وَيَصْبِرُ مِنْهُ عَلَى الْأَذَى، وَلَمْ يُفْلِح الْعَمُّ فِي ثَنْيِهِ عَمَّا آمَنَ بِهِ، وَبَعْدَ أَنْ يَئِسَ أَطْفَأَ النَّارَ، وَفَكَّ وَثَاقَهُ، وَتَرَكَهُ وَشَأْنَهُ.

هَذِهِ الْحَادِثَةُ أَعْطَتِ الزُّبَيْرَ قُوَّةً وثباتاً عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَاشْتَدَّ إِيمَانُهُ وقَوِيَ تحمُّلهُ؛ فَكَيْفَ لَا يَتَحَمَّلُ وَقَدْ أَرَادَتْ أُمُّهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ الصِّعَابَ مُنْذُ صِغَرِهِ!؟

لَازَمَ الزبيرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي جَلَسَاتِهِ وَرَوَحَاتِه وَغَدَوَاتِهِ، وَتعلَّمَ الْكَثِيرَ مِنْهُ.

وَبَعْدَ أَنِ اشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ لِلْمُسْلِمِينَ أَذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحابِهِ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ، فَهَاجَرَ الزُّبَيْرُ إِلَى الْحَبَشَةِ مَرَّتَيْن، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَّةَ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى يَثْرِبَ مَع ثُلَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فَاسْتَقْبَلَهُ الزُّبَيْرُ مَعَ الْمُستقبلِينَ، وَظَلَّ مُلازِماً لَهُ، وَمَا مِنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا الرَّسُولُ ﷺ إِلَّا كَانَ الزّبَيْرُ مَعَهُ.

فَفِي غَزْوَةِ بَدْرٍ تَتَجَلَّى شَجَاعَتُه وَجُرْأَتُهُ، فَبَعْدَ أَنِ اعْتَجَرَ[1] عِمَامَةً صَفْرَاءَ اللَّوْنِ، وَقَدْ أَمْسَكَ بمقْبِضِ سَيْفِهِ وَهُوَ مُتَشَوِّقٌ لِمُلَاقَاةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَبَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ الْمَعْرَكَةِ تَهَلَّلَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: (أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، لَقَدْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ تُقَاتِلُ مَعَنَا، وَعَلَيْهَا عَمَائِمُ صَفْرَاءُ اللَّوْنِ كَعِمَامَةِ الزُّبَيْرِ).

وَفِي خِضَمِّ الْمَعْرَكَةِ رَأَى الزُّبَيْرُ عَمَّه « نَوْفَلاً » مسرعاً إِلَيْهِ شاهراً سَيْفَهُ يُرِيدُ قَتْلَهُ، إِلَّا أَنَّ الْفَتَى الشُّجَاعَ كَانَ أَسْرَعَ مِنْهُ فَرَمَاهُ بِحَرْبَتِهِ فَخَرَّ صَرِيعاً، وَانْتَزَعَ الْحَرْبَةَ مِنْ صَدْرِ عَمِّه وَوَاصَلَ قِتَالَه.

وَفِي يَوْمِ أُحُدٍ أَبْلَى بلاءً حسناً، وَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَهَارَتَهُ فِي الرَّمْيِ قَالَ لَهُ: (ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي)، وَأَعَادَهَا الرَّسُول ﷺ مَرَّةً أُخْرَى فِي يَوْمِ بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَهَكَذَا تَتَوَالَى انْتِصاراتُ الزُّبَيْرِ، وَتَزْدَادُ محبةُ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ، وَكَيْفَ لَا يُحِبُّهُ؛ فَهُوَ بِالرَّغْمِ مِمَّا قَدَّمَهُ لِلْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ مِنْ رَائِحَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَهِيَ عَمَّتُهُ، وَالرَّسُولُ كَانَ يُحِبُّ كلَّ مَنْ يَمُتُّ بِصِلَةٍ لِخَدِيجَةَ قَرَابَةً أَوْ صُحْبَةً، وَبَلَغَتْ مَكَانَتُهُ عِنْدَهُ درجةً عظيمةً عِنْدَمَا قَالَ لَهُ: (لكل نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ).

(١) اعتجر: وضعَ العِمَامَة على رأسه.

فَرِحَ الزُّبَيْرُ كثيراً، وَزَادَتْ فرحتُهُ يَوْمَ عَلِمَ أَنَّ جِبْرِيلَ يُقْرِئُهُ السَّلَامَ، وَيُخْبِرُه أَنَّهُ مِنَ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ.

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَوَارِيِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَرْضَاهُ، ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ الَّذِي اسْتَلَّ[١] أَوَّلَ سَيْفٍ فِي الْإِسْلَامِ!!.

(١) استل: رفع وشهر.

عَبدُ اللهِ بنُ عَبَّاس

المُعلِّمُ الصَّغيرُ

عانى الْمُسْلِمُونَ فِي شِعْبِ[1] أَبِي طَالِبٍ معاناةً شديدةً فِي قِلَّةٍ منَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لِيَتْرُكُوا هَذَا الدِّينَ، وَضربَتْ قُرَيْشٌ حَصارًا شديدًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَأَبُو لَهَبٍ يَمْنَعُ التُّجَّارَ مِنْ أَنْ يَبِيعُوا الْمُسْلِمِينَ شيئًا، وَيَقُولُ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ! غالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، حَتَّى لَا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شيئًا، وَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا خَسَارَ عَلَيْكُم!. فَصَارَ التُّجَّار يَزِيدُون عَلَيْهِمْ فِي ثَمَنِ السِّلْعَةِ أضْعافًا حَتَّى يَرْجِعَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أَطْفالِهِمْ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ شَيْءٌ، وَالأَطْفَالُ يَتَضَاغَوْنَ[2] جُوْعًا، وَيَذْهَبُ التُّجَّارُ إِلَى أَبِي لَهَبٍ فيربحُهُمْ فِيمَا اشْتَرَوْا مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ.

وَوَصَلَ الأَمْرُ بِالْمُسْلِمِينَ إِلى أَن أَكَلُوا وَرَقَ الشَّجَرِ وَالْخَبَطِ[3].

وَفِي وَسَطِ هَذِه الْمُعَانَاة وُلِد لِلْعَبَّاسِ « عَمِّ الرَّسُولِ » ﷺ مَوْلُودٌ جَمِيلٌ، فَفَرِحَ بِهِ، لَكِنَّه في الوقتِ نفسِهِ أَشْفَقَ عَلَيْهِ مِمَّا يُعَانِيه الْمُسْلِمُونَ، فَضَمَّه إِلى صَدْرِهِ وَدَمِعَتْ عيناهُ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوضَعَه بَيْنَ يَدَيْهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِالْبَرَكَةِ وَيُسَمِّيَهُ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ، وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ وَالتَّقْوَى.

عَانَى عَبْدُ اللَّهِ « وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا شيئًا » مَعَ أَهْلِهِ من قِلَّةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ مَعَ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ تُعْرَفُ فِي الشَّدَائِد.

كَبِرَ عَبْدُ اللَّهِ قَلِيلًا وَصَار يَحْبُو، وَانْفَكَّ الْحِصَارُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ

(١) الشعب أو الشعاب : طرق ضيقة بين الجبال، يقال : اهل مكة أدرى بشعابها .

(٢) يتضاغون : يصرخون من شدة الجوع.

(٣) الخبط : ما سقط من أوراق الشجر .

الْمُسْلِمِينَ وَأَصْبَح يَمْشِي وَيَلْعَبُ فِي حاراتِها، وَذَات يَوْمٍ أَخَذَهُ الرَّسُولُ ﷺ، وَأَدْنَاهُ مِنْهُ، وَرَبَتَ[1] عَلَى كَتِفَيْهِ وَقَالَ لَهُ: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ). وَكَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا الدُّعَاءَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً حَتَّى انتشرَ بيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فصَارُوا يتفاءَلونَ بِهَذَا الْغُلَامِ، وَيَتَوَقَّعُون لَه مَكَانَةً بَيْنَهُم.

أَحَبَّ عَبْدُ اللَّهِ ابْنَ عَمِّهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَمَا إِنْ بَلَغَ سِنَّ التَّمْيِيزِ حَتَّى صَارَ يُؤَدِّي جَمِيعَ صَلَوَاتِه مَعَ الْمُسْلِمِينَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَاتَ يَوْمٍ أَعَدَّ عَبْدُ اللَّهِ وَضُوءَ رَسُولِ اللَّهِ، وَتَوَضَّأَ بَعْدَهُ، ثُمَّ دَخَلَا الْمَسْجِد لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُهُمَا، فَكَبَّر النبيُّ ﷺ لِلدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ فَمَا كَانَ مِنَ الْغُلَامِ الصَّغِيرِ إِلَّا أَنْ وَقَفَ خَلْفَهُ مقتديًا بِه، فَشَعَر الرَّسُولُ ﷺ بِهِ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ وَقَرَّبَهُ إزاءه[2]، فَارْتبكَ عَبْدُ اللَّهِ وَتَأَخَّرَ عَنْ مُتَابَعَةِ الصَّلَاةِ مَعَ إِمَامِهِ الْعَظِيم، وَوَقَف مَذْهولًا حَتَّى أَنْهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاتَهُ، فَسَأَلَه: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَوَ ينبغي لأحدٍ أَنْ يُصَلِّيَ إزاءَكَ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ!؟

فابْتسَمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ داعيًا لَه: (اللَّهُمَّ آتِهِ الْحِكْمَةَ).

تَحَقَّقَتْ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَارَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يُشَار إِلَيْهِم بِالْبَنَان[3] وَهُوَ صَغِيرٌ، وَعَرَفَه الصَّحَابَةُ بِعِلْمِهِ الْوَاسِعِ لِأَنَّهُ اسْتَمَرَّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ملَازِمًا لَهُ كَظِلِّهِ يَسْتَمِعُ إِلَى كَلَامِهِ الْعَذْبِ، وَيَفْتَحُ أُذُنَيْهِ وَقَلْبَهُ لِكُلِّ حَرْفٍ يَقُولُه، وَيلَازِمُه فِي أَكْثَرِ أَسْفَارِهِ.

(١) ربتَ: دقّ بكفّه دقة خفيفة لطيفة عدة مرات.

(٢) إزاءه: جانبه.

(٣) بالبنان: بالأصابع.

وَكَم حزِنَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» عَلَى وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ عمرُهُ آنذاكَ قَد تَجَاوَز ثَلَاثَةَ عَشَرَ عامًا، وَلَكِنَّهُ صَبَرَ كَمَا صَبَرَ الْمُسْلِمون، وَلَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ مَجَالِسِ الْعِلْمِ قَطُّ. فَصَارَ يَبْحَثُ عَنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ مَكَان.. وَقَالَ لَهُ أَحَدُ الصَّحَابَةِ يومًا: أَنْت عالِمٌ فَكَيْف تَبْحَثُ عَنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ؟!!

كَان عبدُ اللهِ متواضِعًا مهذَّبًا لَا يَكِلُّ، وَلَا يَتْعَبُ، وَهُو يَبْحَثُ عَنِ الْعِلْمِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ سَمِعَ بِصَحَابِيٍّ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ يَسْكُنُ فِي أَطْرَافِ الْمَدينةِ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ مسرعًا، لَكِنَّهُ وَصَلَ وَقْتَ القيلولةِ[1]، فَامْتَنَعَ عَنْ قَرْعِ الْبَابِ حَتَّى يحينَ الوَقْتُ الْمُنَاسِبُ، فَخَلَعَ رِدَاءَه وتوسَّدَه[2] تَحْتَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الجَوُّ حارًا، وَالشَّمْسُ تلفحُه بِحَرَارَتِهَا، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ، وَرَاح يَغُطُّ فِي سُبَاتِهِ مِنْ أَثَرِ التَّعَبِ، وَمَضَى وَقْتٌ غَيْرُ يَسِيرٍ، عِنْدَهَا خَرَجَ الصَّحَابِيُّ مِنْ بَيْتِهِ لِصَلَاةِ الْعَصْرِ، وَذُهِل مِمَّا رَآهُ، وَلَمَّا تَأَكَّدَ مِنَ الْغُلَامِ الصَّغِيرِ قَالَ لَهُ: يَا بْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ.. مَا جَاءَ بِك؟! هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَك.

فَقَالَ لَهُ: لَا.. أَنْتَ أَحَقُّ بِأَنْ أَسْعَى إِلَيْكَ.

انْطَلَقَ عَبْدُ اللهِ مَعَ الصحابيِّ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَأَدَّيَا الصَّلَاةَ جَمَاعَةً، ثُمَّ عَادَا إِلَى الْمَنْزِلِ، فَأَخَذَ عَبْدُ اللهِ يَسْأَلُ الفقيهَ عَنِ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ، وَعَنْ بَعْضِ الْمَسَائِلِ الَّتِي كَانَ يتوقُ[3] إِلَى مَعْرِفَتِهَا.

(١) القيلولة: النَّوم أَوْ الاِسْتِرَاحَة بَيْنَ الظُّهرِ وَالْعصر.

(٢) توسده: جَعَلَه وِسَادَة.

(٣) يتوق: يَتَشَوَّق.

وَذَاتَ مَرَّةٍ دَعَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ كِبَارِ الصَّحَابَةِ لِاسْتِشَارَتِهِمْ فِي أمرٍ مَا، فَلَمَّا حَضَرَ رَفَعَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَعْلَى قَدْرَه، وَوَجَّهَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كَلَامَهُ قائلًا: لَقَد أُعْضِلَ[1] عَلَيْنَا أَمْرٌ فَمَا الْحَلُّ عِنْدَكَ يا ابنَ عمِّ رسولِ اللهِ؟!

عِنْدَهَا عُوتِب عُمَرُ مِنْ قِبَلِ أَحَدِ الْجَالِسِينَ لِجَعْلِه ابْنَ عَبَّاسٍ فِي مَكَانةٍ عَالِيَةٍ، فَقَالَ عُمَرُ: إنَّه فَتَى الْكُهُولِ.. لَهُ لِسَانٌ سَؤولٌ، وَقَلْبٌ عَقُولٌ.

أُطْلِقَ عَلَى عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ لَقَبُ (حَبْرِ الأُمَّةِ)، وَلُقِّبَ بِالْحَبْرِ الْبَحْرِ لِكَثْرَةِ عِلْمِهِ وَتَقْوَاهُ، وَعَاشَ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ متعلِّمًا وعَالِمًا ومُعلِّمًا قدوةً لِأَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي تواضُعِهِمْ وَحِرْصِهِمْ عَلَى الْعِلْمِ.

(١) اعضل: صعب.

...عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ

الطَّالِبُ الْمُجتَهِدُ

نَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى أَبِيهِ عمرَ بْنِ الخطَّابِ نظرةَ عِزٍّ، مِلْؤُهَا الْإِيمَانُ وَالِافْتِخَارُ، وهُوَ يقولُ لكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَهُمَا فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى يَثْرِبَ:

- مَنْ أَحَبَّ أَنْ تثكَلَهُ أُمُّهُ فلْيَلْحَقْني إِلَى هَذَا الْوَادِي!.

وَمِنْ يَوْمِهَا تعلَّمَ الْفَتَى الَّذِي لَمْ تَتَجَاوزْ سَنَوَاتُهُ الْعَشْرَ؛ الْعِزَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَقَوْلَ الْحَقِّ وَمُصَارَعَةَ الْبَاطِلِ.

وَصَلَ عَبْدُ اللهِ مَعَ أَبِيهِ إِلى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ متشوقَيْنِ لِرُؤْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ الْكِرَامِ، وَاسْتَقْبَلَهُمَا الْمُسْلِمون مُهلِّلِينَ مكبِّرِينَ.

لَقَد تَحَقَّقَتْ دَعْوَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَمَا قَالَ: (اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَدِ العُمَرَيْنِ)، وَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أَنْ عَلِمَوا بِإِسْلَامِ عُمَرَ بِأَنَّ شَيْئًا مَا يَتَغَيَّرُ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ.

الْتَزَمَ الْفَتَى الْيَافِعُ عَبْدُ اللهِ فِي مَدْرَسَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَظَلَّ مُلازِمًا لَهُ يَسْتَمِعُ إِلَى أَحادِيثِهِ ودروسِهِ النَّافعةِ، وَيَسْأَلُه عَنْ بَعْضِ الْأَحْكَامِ الْفِقْهِيَّةِ، حَتَّى أَحَبَّهُ رَسُولُ اللهِ وَكُلُّ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَمْ كَانَتْ فَرْحَتُهُ عَظِيمَةً عِنْدَمَا عَلِمَ بِرَغْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مُلَاقَاةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أُحُدٍ، فَطَلَبَ مِنْ أَبِيهِ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ الْمُجَاهِدِينَ لِيَنَالَ شَرَفَ الْجِهَادِ.

سَارَ مَعَ أَبِيهِ رَافِعًا رَأْسَهُ وَسَيْفَهُ، وَقَلْبُهُ الصَّغِيرُ يَخْفِقُ لَا خوفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ولِقَائِهِم، بَلْ خوفًا مِنْ أَنْ يردَّهُ رسُولُ اللهِ.

وَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَعُودَ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ صِبْيَانِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فهُمْ صِغارٌ، مَازَالَتْ عِيْدَانُهُمْ طَرِيَّةً(١)، وَحَاوَلَ هَؤُلَاءِ الصِّبيانُ التَّوَسُّلَ لَكِنَّهُمْ لَمْ يُفلِحُوا، وَحَاوَلَ عَبْدُ اللهِ مرةً ومرَّةً.. لَكِنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ أَيْضًا، فَقَدْ خَشِيَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصِغَرِ سنِّهِ، كَمَا خَشِيَ على غيرِهِ منَ الصِّغارِ.

رَجَعَ عَبْدُ اللهِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَلْبُهُ يَخْفِقُ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ، وَاسْتَمَرَّ ملازمًا لِعِبَادَتِه وَصَلَوَاتِهِ وَقِيَامِهِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يحْفَظُ القرآنَ، ويستمعُ إلى أَحَادِيثِ الرَّسُولِ وَيَعِيهَا(٢)، وَتَحَقَّقَتْ أُمْنِيَّتُه الْعَزِيزَةُ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، فَقَدْ بَلَغَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ سينالُ شَرَفَ الِاشْتِرَاكِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الحاسِمَةِ، وأَنَّ الرَّسُولَ لنْ يردَّهُ هذهِ الْمَرَّةَ.

فَشَمَّرَ عَنْ سَاعِدَيْهِ، وَأَخَذَ يُسَاعِدُ الْمُسْلِمِينَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، الذي اقترحَهُ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ، وَعِنْدَمَا كانَ عبدُ اللهِ يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ يرتاحُ قليلًا، ثمَّ يَأْخُذُ بَعْضَ الْأَسْلِحَةِ لِسَنِّهَا(٣).

كَانَ فرِحًا مَسْرورًا فِي عَمَلِهِ، وَكَانَ يَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ دُنُوَّ سَاعَةِ الحَسْمِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لَيُعَوِّضَ مَا فَاتَهُ فِي الغزْوتَينِ السَّابِقَتَيْنِ، وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ شَتَّتَ شَمْلَ الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ، وَجَعَلَ النَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ دُونَ إِرَاقَةِ دِمَاءٍ.

فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بانْتصارِهِمُ الَّذِي مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، إذ بَدَّدَ الْمُشْرِكِينَ فِي لَيْلَةٍ

(١) كناية عن صغر سنّهم.

(٢) يَعِيهَا : يفهمها .

(٣) سنها : جَعْلُهَا حَادَّة

ظَلْماءَ عاصفةٍ تَرَكَتْهُمْ يَنْسَوْنَ مَاجَلَبُوهُ مَعَهُمْ إِلَى أَرْضِ الْمَدِينَةِ مِنْ قُدُورٍ وَمَتَاعٍ وخِيامٍ، ويحاولونَ الْفِرَارَ بأجْسادِهم.

عَادَ عَبْدُ اللهِ إِلَى مَدْرَسَتِهِ الحبيبةِ عابدًا وملازمًا لحبيبِهِ الْكَرِيمِ يَسْتَمِعُ مِنْهُ كلامًا عَذْبًا، وينهلُ مِنْهُ دُونَ أَنْ يَكْتَفِيَ، وَلَمْ يكُنْ يُفَارِقُ الْمَسْجِدَ إِلَّا لِحَاجَتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ يَنَامُ قربَ الْمِحْرابِ.

وَتَحَدَّثَ ذَاتَ يَوْمٍ مَعَ أُخْتِهِ حَفْصَةَ زَوْجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قائلًا لَهَا: كُنْتُ قائمًا فِي الْمَسْجِدِ، فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ بِيَدِي قِطْعَةً مِنْ حَرِيرٍ، وكأنَّني لَا أُرِيدُ مكانًا فِي الْجَنَّةِ إلا طَارَتْ بِي، وَرَأَيْتُ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَتَيَانِي وَأَرَادَا أَنْ يَذْهَبَا بِي إِلَى النَّارِ فتلقَّاهُما مَلَكٌ فَقَالَ: لَا تُرَعْ[1] فخلَّيَا عَنِّي، وَلَمَّا سَمِعَتْ أُخْتُه بِهَذِه الرُّؤْيا قَصَّتْها عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا:

(إِنَّ أَخَاكِ رَجُلٌ صَالِحٌ..، نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ! فَلْيُكْثِر).

وَمُنْذ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ يَدَعْ عَبْدُ اللهِ قِيَامَ لَيْلَةٍ، لَا فِي حِلِّهِ وَلَا فِي تِرْحالِهِ[2] إِلَى أَنْ لَقِيَ رَبَّهُ راضيًا مرضيًّا.

كَمَا أَنَّهُ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» لَمْ يَتْرُكْ غَزْوَةً أَو سريَّةً أَو مَعْرَكَةً[3] بَعْدَ

(١) لا تُرَعْ: لَا تَخَفْ.

(٢) الحل: الإقامة، والترحال: السفر.

(٣) الغزوة: هي المهمة القتالية التي خرج رسول الله إليها مع أصحابه مثل غزوة بدر، والسريَّة: هي مهمة القتال التي يرسل رسول الله لها جيشاً، ولا يخرج معهم مثل سرية سيف البحر التي قادها حمزة رضي الله عنه، والمعركة: هي المهمة القتالية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل معارك حروب الردة زمن أبي بكر رضي الله عنه، وما بعدها إلى يوم القيامة.

الْخَنْدَقِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ السَّبْقُ فِيهَا.

رَحِمَكَ اللَّهُ يَابْنَ عُمَرَ! فَقَدْ كُنْتَ رجلاً صالحًا شَهِدَ لَك بِذَلِكَ خَيْرُ الْأَنَامِ، وَكُنْتَ شجاعًا كريمًا، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ وَأَنْتَ ابْنُ الْفَارُوقِ عُمَرَ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمَا.

***

أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ

(سعْدُ بنُ مالكِ بنِ سنَانٍ)

الطَّالبُ الفقيه

هَرَعَ مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «فِي أُحُدٍ» عِنْدَمَا شَجَّ الْكُفَّارُ وَجْهَهُ الْكَرِيمَ، فَرَأَى الدَّمَ يَسِيلُ عَلَى وَجْنَتِهِ[1] الشَّرِيفَةِ، فأسرعَ يمسحِ جُرْحَهُ، وفي الوقتِ نفسهِ جَعَلَ مِنْ جَسَدِهِ درعًا لحِمَايتِهِ منَ الْمُشركينَ، ولمّا انجلتِ المعركةُ سُرَّ النَّبِيُّ ﷺ من عملهِ وقالَ: **(مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا!!)**.

وَبَعْدَ أنِ اطْمأنَّ مالكٌ على النبيِّ، رَجعَ يكِرُّ على الْمُشركين، وَشاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسْتشهَدَ مَعَ عَددٍ من الصَّحابةِ منهُمْ عَمُّ النبيِّ حمزةُ رضيَ الله عَنْهُمْ أجمعين.

وَعِنْدَمَا وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ تَلَقَّاهُ الْمُسْلِمون وَبَيْنَهُم ابنُ مالكٍ الفَتى الصغيرُ سعدٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: **(سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ؟)** فَقَالَ: نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي!.

ثُمَّ دَنَا سَعْدٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَبَّلَ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **(آجَرَكَ[2] اللَّهُ فِي أَبِيكَ..)**.

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يُشَكِّلُ مفاجأةً لِلْغُلَامِ، وَلَمْ يَكُنْ ليَحْزُنَ عَلَى أَبِيهِ كثيرًا، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.. بَلْ كَانَ يَتَمَنَّى اللِّحَاقَ بِهِ شهيدًا فِي الْغَزَوَاتِ القَادِمَةِ، وَلِذَلِك سَارَعَ لِلِاشْتِرَاكِ فِي الْجِهَادِ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ.. وَلَمْ يَرُدَّهُ الرَّسُولُ ﷺ هَذِهِ الْمَرَّةَ كما ردَّهُ في أُحُدٍ مَعَ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ اسْتَصْغَرَهُمْ، فَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ

(١) الوجنة: أعلى الخد.

(٢) آجرك: أعطاك الأجر.

عَلَامَاتُ الْفُتُوَّةِ والرُّجولةِ.. ثُمَّ شَهِدَ بَعْدَهَا جَمِيعَ الْغَزَوَاتِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ.

حَرَصَ سعدٌ مُنْذُ حَدَاثَةِ سِنِّهِ عَلَى مُصَاحَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِتعلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَلَقِّي الْحَدِيثِ.

وتمَّ اخْتِيارُ كُنْيَةٍ تَلِيقُ به، فصار الصحابةُ يقولون له: « أبو سعيدٍ »، وحتى يُمَيَّزَ عن غيرِهِ من الصَّحابَةِ صَارُوا يقولون لهُ: « أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ».

حَفِظَ أَبُو سَعِيدٍ الْكَثِيرَ مِنْ تعاليمِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ مثالًا فِي الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وكان يقضي أكثرَ وقتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ.

نَظَرَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ذاتَ يومٍ فَقَالَ لَهُ: **(مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)**.

فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْعَبْدَ مِئَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ). قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)**.

سَمِعَ أَبُو سَعِيدٍ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ فَمِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ فَأَحَبَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَغَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً بَعْدَ الْخَنْدَقِ.

لَقَد تَرَبَّى أَبُو سَعِيدٍ فِي مَدْرَسَةِ النُّبُوَّة، ونَهَلَ مِنَ الْعِلْمِ النَّبَوِيِّ الْفَيَّاضِ، وتأدَّبَ عَلَى يَدِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، فَغَدَا نبراسًا يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِ.

جاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يومًا يَسْأَلُه[1] الْعَطَاءَ لشدةٍ وَجُوعٍ أَصَابَه وَأَهْلَهُ، فَسَمِعَ رسولَ اللهِ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: **(مَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَن سَأَلَنَا فَوَجَدْنَا لَه أَعْطَيْنَاه)**، فَرَجَعَ أَبُو سَعِيدٍ وَلَمْ يَسْأَلْهُ، وَقَالَ: أَحْسَبُهُ يُرِيدُنِي، أَي يَعْنِينِي بِهَذَا الْقَوْلِ. وَلَمْ يَسْأَلْ أَبُو سَعِيدٍ بَعْدَ ذَلِكَ أَحدًا، وَرَزَقَهُ اللَّهُ خيرًا كثيرًا حدَّثَ بها النَّاسَ.

وَيُخْبِرُنَا عَنْ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَيَقُولُ:

وَمَا زَالَ اللَّهُ يَرْزُقُنَا حَتَّى مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الأَنْصَارِ أَكْثَرَ أموالًا مِنَّا!!

غَدَا أبو سعيد الخدري «بَعْدَ ذَلِكَ» عَلَمًا بارزًا فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ، وَأَخَذ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِأَقْوَالِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَصَارَ بَيْتُه مَقْصِدَ كُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ، وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أكثر من ألفِ حديثٍ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أَشْيَاخِهِ قَالُوا: (لَمْ يَكُنْ أحدٌ مِن أحداثِ[2] أصحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَفْقَهَ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدريِّ).

***

(1) يسأله: يطلب منه مساعدة.

(2) الأحداث: صِغَارُ السِّنّ.

أَبُو مَحْذُورَةَ

الْمُشاغِبُ الذِي أَصْبَحَ مُؤَذِّنًا

بَعْدَ أَنْ أَدَّبَ رَسُولُ اللهِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ قُرْبَ الطَّائِف أحبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَّةَ حَيْثُ بَيْتُ اللهِ الْحَرَامُ، وَفِي طَرِيقِهِ قُرْبَ الْجِعْرَانَةِ مَا بَيْنَ الطَّائِفِ وَمَكَّةَ، انْتَظَرَ أَهْلَ قَبِيلَةِ ثَقِيفٍ وَقَبِيلَةِ هَوَازِنَ؛ أَنْ يأْتُوهُ طَمَعًا فِي إسلامِهِمْ وَكَيْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ أَسْرَاهُم وَمَا خَلَّفُوه مِنْ غَنَائِمَ[1] وَرَاءَهُم؛ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَحْضُرُوا، انْتَظَرَ وَانْتَظَرَ وأخيرًا جَاءَهُ الرَّدُّ الحاسِمُ: لَنْ يَحْضُرُوا فَقَامَ بِتَوْزِيعِ الْغَنَائِمِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ولَمْ يترُكْ شَيْئًا.

وَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ قَرُب تَلَّةٍ مرتفعةٍ قليلًا، حَانَ مَوْعِدُ أَذَانِ الظُّهْرِ فَأَمَرَ بلالاً الْحَبَشِيَّ أنْ يصعدَ التَّلَّةَ ويُؤَذِّنَ:

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ

أَشْهَد أَنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ....

صَوْتٌ غَرِيبٌ يَسْمَعُهُ رَسُولُ اللهِ وَصَحَابَتُه، صوتٌ يُقَلِّدُ مُؤَذِّنَ الرَّسُولِ، وَلَكِنْ بسخريةٍ وَاسْتِهْزَاءٍ، ولعلَّ هذا الصَّوتَ والضَّحِكَ جاءَ مِنْ خَلْفِ التَّلةِ.

وَمَا إنِ انْتَهَى بِلَالٌ مِنَ الْأَذَانِ حَتَّى ظَهَرَ ثَلَاثَةُ شُبَّانٍ صِغَارٍ وَمَا زَالَ كَبِيرُهُم يُقَلِّدُ آخِرَ جُمْلَةٍ قَالَهَا بِلَال:

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

---

(١) الغنائم: ما يأخذه المنتصر في الحرب من أموال.

الصَّوْتُ جَمِيلٌ جِدًّا، وَلَكِنْ فِيهِ اسْتِهْزَاءٌ؛ كَرِهَهُ الرَّسُولُ وَالصَّحَابَةُ.

اِرْتَاعَ الشُّبَّانُ الصِّغَارُ مِمَّا رَأَوْهُ، وَهَمُّوا بِالْهُرُوبِ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ؟

وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَغْنَامُهُمْ أَنْ تَهْرُبَ أَيْضًا؟!!.

أَمَرَ الرَّسُولُ ثَلَاثَةً مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَقْوِيَاءِ أَنْ يَأْتُوا بِهَؤُلَاءِ الشَّبَابِ الْمُسْتَهْزِئِينَ!.

حَضَرُوا جَمِيعًا خَائِفِينَ مَرْعُوبِينَ، وتَبَيَّن أَنَّهُمْ مِنَ الرُّعَاةِ يَسْرَحُونَ بِأَغْنَامِهِمْ، وَمَثُلُوا[1] أَمَامَ الرَّسُولِ، وصاروا يَعْتَذِرونَ..

سَأَلَهُم رسولُ اللهِ: مَنِ الَّذِي كَانَ يُقَلِّدُ صَوْتَ الْأَذَانِ؟

فَأَشَارُوا إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَائِلِينَ: إِنَّهُ أَبُو مَحْذُورَةَ هَذَا، وَصَارُوا يَضْحَكُون.

غَضِبَ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ، وَهَمُّوا بِتَلْقِينهم دَرْسًا لَن ينسَوْهُ أَبَدًا، وَلَكِنَّ رَسُولَ الرَّحْمَةِ مَنَعَهُمْ مِنْ إِيذَاءِ أَيِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

وَلْنَسْتَمِعْ إِلَى أَبِي مَحْذُورَةَ يُكْمِلُ لَنَا الْقِصَّةَ:

قَال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: **(قُمْ فَأَذِّنْ بِالصَّلَاةِ)** فَقُمْتُ وَلا شَيْءَ أَكْرَهُ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا مِمَّا يأْمُرُني بِهِ، فَقُمْتُ وَصَار رَسُولُ اللهِ يُلْقِي عَلَيَّ التَّأْذِينَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: **قُلْ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ. فَذَكَرَ الْأَذانَ كُلَّهُ، ثُمَّ دَعَانِي حِينَ انْتَهَيْتُ فَأَعْطَانِي صُرَّةً فَتَحْتُهَا فَإِذَا فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْفِضَّةِ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنِّي وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى نَاصِيَتِي[2] وَمَسَحَ جَبِينِي، ثُمَّ مَرَّرَ يَدَهُ**

(١) مثلوا : وقفوا

(٢) الناصية: مقدمة الرأس.

عَلَى صَدْرِي ووَصَلَ إلَى كَبِدِي حَتَّى بَلَغَتْ يَدُهُ سُرَّتي، ثُمَّ قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مُرْنِي بِالتَّأْذِينِ فِي مَكَّةَ، قَالَ: قَدْ أَمَرْتُكَ.

يُتَابِعُ أَبُو مَحْذُورَةَ قِصَّتَهُ قَائِلًا:

بَعْدَ أَنْ مَسَحَ رَسُولُ اللهِ بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ عَلَى جَسَدِي ذَهَبَ كُلُّ كُرْهٍ فِي نَفْسِي لِرَسُولِ اللهِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَتَحَوَّلَ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّةٍ دَخَلَتْ شِغَافَ قَلْبِي.

فِي هَذِهِ الْجَلْسَةِ أَحَبَّ رَسُولُ اللهِ أَنْ يُعَلِّمَ أَبَا مَحْذُورَةَ وَصَاحِبَيْهِ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ السَّمْحَةَ، فصاحِباهُ بَعْدَ أَنْ نَطَقَا الشَّهَادَةَ قَفَلا راجِعَيْنِ بأَغْنَامِهِما، وَأَمَّا أَبُو مَحْذُورَةَ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يَبْقَى مَعَ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ، فَحَقَّقَ رَغْبَتَهُ.

نَظَرَ الرَّسُولُ إلَى أَصْحَابِهِ لِيَرَى مَنْ هُوَ فِي سِنِّ[1] أَبِي مَحْذُورَةَ، فَرَأَى شَابَّيْنِ صَغِيرَيْنِ هُمَا أَبُو هُرَيْرَةَ، وسَمُرَةُ بنُ جندبٍ، فَأَمَرَهُمَا أَنْ يُلازِمَا الرَّاعِيَ الشابَّ الذي تَرَكَ رِعايةَ الْغَنَمِ وَصَارَ يَرْعَى نَفْسَهُ، وَأَنْ يُعَلِّماهُ الْقُرْآنَ وَالْآدَابَ والسُّلوكَ الحَسَنَ.

رَجِعَ الرَّسُولُ وَصَحَابَتُهُ إلى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، وَرَجَعَ أَبُو مَحْذُورَةَ مَعَهُم، وَاسْتَمَرَّ الصَّدِيقَانِ يُعَلِّمانِ الْمُسْلِمَ الْجَدِيدَ تعالِيمَ الْإِسْلَامِ فِي الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ وَخَارِجِه، وَأَتْقَنَ أَبُو مَحْذُورَةَ الْأَذَانَ بِصَوْتٍ نَدِيٍّ[2] لا يُجَارِيهِ إِلَّا بِلَالٌ، فَكَانَا يَتَقَاسمانِ أَوْقَاتَ الأذانِ بِالتَّرَاضِي بَيْنَهُمَا.

(١) في سنه: في مثل عمره.

(٢) بِصَوْتٍ نَدِيٍّ: بصوت جميل.

ذَاتَ لَيْلَةٍ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ عَلَى الأَصْدِقَاءِ الثَّلَاثَةِ فَسَرَّهُ مَا رَأَى وَلَا سِيَّمَا أَنَّ أَبَا مَحْذُورَةَ صَارَ يَجُوِّدُ الآيَاتِ بِصَوْتٍ جَمِيلٍ، نَظَرَ إِلَيْهِمْ وحدَّقَ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ مبتسمًا: (**آخِرُكُمْ مَوْتًا بِالنَّارِ!**) وَخَرَجَ..

ذُهِلَ الأَصْدِقَاءُ الثَّلاثَةُ مِمَّا سَمِعُوهُ، وبَقُوا فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً، بَلْ أيامًا كَأَنَّهَا الأَعْوَامُ الطَّوِيلَةُ، مَاذَا يَقْصِد رَسُولُ اللهِ؟ هَل بَيْنَنَا مُنَافِقٌ؟ وَصَارَ كلُّ وَاحِدٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ صَاحِبَيْه!!.

بَعْدَ أَنْ رتَّبَ رَسُولُ اللهِ أَمْرَ أَصْحَابِهِ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ أَحَبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حَيْثُ أَحْبَابُهُ الأَنْصَارُ الَّذِينَ نَصَرُوهُ يَوْمَ خَذَلَهُ الأَقَارِبُ وَالْجِيرَانُ، وَرَجَعَ مَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَسَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ، وَظَلَّ أَبُو مَحْذُورَةَ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ لِلْمُهِمَّةِ الَّتِي شرَّفَهُ بِهَا رَسُولُ اللهِ، فوَدَّعَ صَاحِبَيْهِ داعياً لَهُمَا بِالْعُمْرِ الطَّوِيلِ.

ظَلَّ أَبُو مَحْذُورَةَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَصَار يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ وَيُكْثِرُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْقِيَامِ بِأَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَلَكِنَّ دعاءً واحدًا كَان يُرَدِّدُه كَثِيرًا: « اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَوْتِي قَبْلَ صَاحِبَيَّ أَبِي هُرَيْرَةَ وَسَمُرَةَ ».

مَرَّتِ الأَيَّامُ وَالأَعْوَامُ الثَّلَاثَةُ، وَانْتَقَلَ رَسُولُ اللهِ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ، وَحَزِنَ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ، وَحزنَ الأَصْدِقَاءُ الثَّلَاثَةُ أكثرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وظَلُّوا فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ.

وانْتَقَلَ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَصَارَ وَالِيًا عَلَيْهَا لِقُوَّتِهِ وَعَدْلِهِ، وَأَمَّا أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَدْ بَقِيَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ.

وَكَانَ سَمُرَةُ كُلَّمَا جَاءَ قَادمٌ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ يَسْأَلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ أَبِي مَحْذُورَةَ، وَأَمَّا الْقَادِمُ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فَيَسْأَلُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَذَاتَ يَوْمٍ حَزِنَ حُزْنَيْنِ، فَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ بِمَوْت أَبِي مَحْذُورَةَ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، حَزِنَ عَلَى صَاحِبِهِ، وَحَزِنَ عَلَى نَفْسِهِ، وَصَارَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَأْتِيَ أَجَلُهُ قَبْلَ أَبِي هُرَيْرَةَ!!

وفِي عَامِ ٥٧ مِنَ الْهِجْرَةِ جَاءَهُ الْخَبَرُ الْمُزْعِجُ: انْتَقَلَ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى الصَّحَابِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ صَخْرٍ الدَّوْسِيُّ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

هَنِيئًا لَك يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! وهنيئًا لَكَ يَا أَبَا مَحْذُورَةَ! عَاشَ سمرةُ أَيَّامًا فِي حُزْنٍ شَدِيدٍ لَيْسَ عَلَى فِقْدَان صَاحِبَيْه بِقَدْرِ مَا خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَكِنَّه بِالرَّغْمِ مِنْ كِبَرِ سِنِّهِ وَبُلُوغِهِ الثَّمَانِينَ فَقَدْ كَانَ يُنَاجِي نَفْسَهُ وَيَقُولُ: لَعَلَّ رَسُولَ اللهِ يَقْصِدُ شَيْئًا آخَرَ، وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ اللهِ، وقَدَرِهِ.

بَعْدَ بِضْعَةِ شُهُورٍ أُصِيبَ سَمُرَةُ بِمَرَضِ الْكُزَازِ، وَوَصَفَ لَهُ الأَطِبَّاءُ عِلَاجًا يُخَفِّفُ آلامَهُ، طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُحْضِرَ قِدْرًا كَبِيرًا مَمْلُوءًا بِالْمَاءِ السَّاخِنِ يُعَرِّضُ جُرْحَهُ عَلَى بُخَارِهِ، وَاسْتَمَرَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصْفَةِ النَّاجِحَةِ أَيَّامًا شَعَرَ خِلَالَهَا بِتَحَسُّنٍ طفيفٍ.

وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ يُعَرِّضُ جُرْحَهُ عَلَى بُخَارِ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدِ مِنَ الْقِدْرِ الْكَبِيرِ إِذْ سَقَطَ فِيهِ وَمَاتَ.

صَدَقَ رَسُولُ اللهِ عِنْدَمَا قَالَ: (**آخِرُكُم موتًا بالنَّارِ**). وَرَحِمَ اللهُ أَبَا هُرَيْرَةَ وَأَبَا مَحْذُورَةَ وَصَحَابَةَ رَسُولِ اللهِ أَجْمَعِينَ.

أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ

القَائِدُ الصَّغِيرُ

رجعَ أُسَامَةُ إلى بيتِ رسولِ اللهِ بعدَ أن كان يلْعبُ معَ أصدقائهِ في أزقةِ المدينةِ يبكي ويصرخُ على غيرِ عادتِهِ ... فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَحْوَهُ فَحَمَلَهُ بِرِفْقٍ وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: انْظُرِي مَا بِهِ؛ فَإِذَا جُرْحٌ فِي وَجْهِهِ، فَطَلَبَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ عَائِشَةَ أَنْ تَمُجَّ الْجُرْحَ(١).. فَلَمْ تَفْعَلْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَبْدُو أَنَّ نَفْسَهَا اشْمَأَزَّتْ مِنْ مَنْظَرِ الدَّمِ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ جَبِينِ ابْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ لَمْ تَعْرِفِ الأُمُومَةَ بَعْدُ.

أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقَرِّبُ فَمَهُ الطَّاهِرَ مِنْ جَبِينِ أُسَامَةَ، وَوَضَعَهُ عَلَى جُرْحِهِ، وَأَخَذَ يَمُجُّ الدَّمَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى اطْمَأَنَّ مِنْ نَظَافَةِ الْجَبِينِ.

مَا أَكْرَمَ هَذَا الْوَجْهَ الَّذِي مَجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ منهُ الدَّمَ، وَأَدَّى لَهُ الإسْعافاتِ الأَوَّلِيَّة اللَّازِمَةِ! وشَفَاهُ اللهُ تَعَالَى بِإِذْنِهِ.

إِنَّهُ وَجْهُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ وَابْنُ حِبِّهِ زيدٍ، أمُّه أمُّ أيمن التي حضنتْ رسولَ الله بعد وفاة أبيهِ وأمِّهِ ، رَبَّاه الرَّسُولُ ﷺ في بيتِهِ بمكَّةَ، وَهَاجَرَ مَعَ والدَيهِ إلى يثربَ وبقيَ قربَ رسول اللهِ، وبَعْدَ أَنِ اسْتُشْهِدَ وَالِدُهُ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ في السنة الثامنة من الهجرةِ، ضَمَّهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَأَحَبَّه حُبَّ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ.

كَانَ أُسَامَةُ أَسْوَدَ أَفْطَسَ كَمَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ، وَلَكِنَّ اللَّوْنَ وَالشَّكْلَ لَمْ يَكُونَا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ عَقَبَةً أَمَامَ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13).

نَشَأَ أُسَامَةُ فِي بَيْتِ أَكْرَمِ النَّاسِ، وَقَدْ شَبَّ وَهُوَ طِفْلٌ، وَصَارَ رجلًا وَهُوَ يافِعٌ.

(١) مجُّ الجرح : سحب الدم بفمه.

عَرَفَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ مَعَانِيَ الحُبِّ وَالإخْلاصِ وَالإيمَانِ وَالْقُوَّةِ، وَتَوَقَّع لَهُ مكانةً عَظِيمَةً، فَقَدْ ولَّاه إِمْرَةَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَوَجِّهِ إِلَى الشامِ، وَعُمْرُهُ لَمْ يَتَجَاوَزِ الْعِشْرِينَ عامًا، وَمَنْ كَانَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ؟

كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَدَدٌ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ!!

اِسْتَعَدَّ الْجَيْشُ لِلْمَسِيرِ فَأَوْقَفَهُ حَادِثٌ جَلَلٌ عَظِيمٌ!!

فمَا هُوَ هَذَا الْحَدَثُ؟

لَقَد تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَصَارَ أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُو جُنْدِيٌّ تحْتَ إِمْرَةِ أُسَامَةَ فَمَاذَا يَفْعَلُ؟!

لَقَد كَثُرَتِ الآرَاءُ بِالنِّسْبَة لِلْجَيْشِ، صَحَابِيٌّ يَقُولُ بِتَغْيِيرِ أُسَامَةَ لِأَنَّهُ صَغِيرٌ، وَآخَرُ يَقْتَرِحُ إِرْجَاءَ[1] إِرْسَالِ الْجَيْشِ.

وَلَكِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَبَى أَنْ يَسْمَعَ لِهَذِه الآرَاءِ، وَقَالَ مستنكرًا: أَيَسْتَعْمِلُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَنْزَعُهُ[2]؟! وَاللهِ لَا أَحُلُّ لواءً عَقَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ. وَلَكِنَّهُ اسْتَأْذَنَ أُسَامَةَ فِي اسْتِبْقَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَهُ فِي الْمَدِينَةِ.

تَحَرَّكَ الْجَيْشُ بِاتِّجَاهِ أَرْضِ الشَّامِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَى الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الإِشْكَال.. وَخَرَجَ يُوَدِّعُهُ ماشيًا عَلَى رِجْلَيْهِ، وَأُسَامَةُ رَاكِبٌ عَلَى جَوادِهِ، فَخَجِلَ

(١) إرجاء: تأجيل.

(٢) أنزعه: أقصيه عن عمله.

أُسَامَةُ وَقَالَ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَا تَنْزِلُ، وَلَا أَرْكَبُ.. وَمَا عَلَيَّ أَنْ أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَاعَةً.

وَوَصَلَ الْجَيْشُ إِلَى مَوْقِعِهِ، واشْتَبَكَ مَعَ أَعْدَائِهِ، وَظَفِرَ أُسَامَةُ وجيشُهُ بِالنَّصْرِ.

وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَافِعَ الرَّأْسِ فرحًا مُسْتبشرًا بِنَصْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَظَلَّ يُشَارِكُ فِي الْمعَارِكِ والْفُتوحَاتِ، وَيُحَقِّقُ النَّصْرَ تِلْوَ النَّصْرِ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ فِي سَنَةِ (54) من الْهِجْرَةِ، راضيًا مرضيًّا.

***

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ
(ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ)

الطالِبَةُ الذَّكِيَّةُ

مَا إِنْ دَخَلَ الْإِسْلَامُ قَلْبَ أَبِي بكرٍ رَضِـي اللهُ عَنْـهُ حَتَّى سَـارَعَ فِـي عَـرْضِ الْإِسْـلَامِ عَلَـى منْ يُحِبُّهُ، وَبَدَأَ بِأَهْلِ بيتِـهِ فَعرَضَـهُ عَلَـى والدِهِ أَبِـي قحافـةَ فرفضَ واسْـتكبرَ، وعَرَضَـهُ عَلَـى زَوْجَتِـهِ قُتَيْلَـةَ ابْنَـةِ عَبْدِ الْعُزَّى فرفضَـتْ، وعرضَـهُ علـى ابنـهِ الكبيرِ عبد الكعبـةِ فرفضَ أيضًـا، فَحَزِنَ أبو بكرٍ كثيرًا، ولكنَّ حُزْنَـهُ تَبـدَّلَ فَرَحًا لَمَّا نَطَقَتْ أسماءُ الصَّـغِيرَةُ ابْنـةُ الثَّلَاثَـةَ عَشرَ عامًا بِالشَّـهَادَتَيْنِ، وَكَذَا نَطَـقَ شقيقُها الصَّغِيرُ عَبْدُ اللهِ، وكانَتْ أسماءُ سابعَ مَنْ يَدْخُلُ في الإسلامِ، وعبدُ اللهِ الثامنَ، وأما عائشةُ يومَها فلَمْ تعرِفْ ما يَدُورُ حولها.

وَأَمَّا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فَنَطَقَ بِالشَّـهَادَتَيْنِ، وقبلَ الْهِجْرَةِ بعامٍ أَوْ أَقَلَّ تَزَوَّجَ مِنْ أَسْمَاءَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهَا وَحَمَلَتْ مِنْهُ.

الْمَوْقِفُ فِي مَكَّةَ رَهِيبٌ، الْمُشْرِكُونَ أَنهَوْا اجْتِمَاعَهُمْ فِي دَارِ النَّدْوَةِ فِي مَكَّةَ، وَقَدْ قَرَّرُوا اِغْتِيالَ الرَّسُولِ، أَتَـى الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لِلْهِجْرَةِ.

الرَّسُولُ يَقْرَعُ بَابَ صَدِيقِهِ أَبِي بَكْرٍ فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ، يَفْتَحُ الصِّدِّيقُ الْبَابَ فَيَفْرَحُ كَثِيرًا، وَيَتَشَاوَرَانِ فِي أَمْرِ الْهِجْرَةِ، ويَفْرَحُ أكثرَ وَيَقُولُ: الصُّحْبَـةَ.. الصُّحْبَـةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَيَتَنَاقَشَانِ فِي تَوْزِيـعِ الْـمُهِمَّاتِ عَلَـى عَجَلٍ.. فَالْـحَرْبُ خِدْعَـةٌ.

عليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَنَامُ فِي فِرَاشِ النَّبِيِّ كَيْ يَخْدَعَ الْمُشْرِكِينَ.

وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ تَأْتِي بِالطَّعَامِ والشَّرابِ إلى غَارِ ثورٍ رَيْثَمَا يَنْتَهِي الْبَحْـثُ عَنْ الرَّسُولِ وصاحبِهِ.

وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ ـ رَاعِي الْغَنَمِ ـ يَأْتِي وَيَرْعَى غَنَمَه بَعْد الضُّحَى، وبعدَ أن تعودَ أسماءُ إلى بيتِ أبيها بمكَّةَ؛ وَعَلَيْهِ أَنْ يمشيَ فِي الطريق كَيْ يُزِيلَ آثارَ الأقدامِ، ولهُ مُهِمَّةٌ أخرى.. أنْ يَأْتِيَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ؛ كَي يَمُدَّ رسولَ اللهِ وأبا بكرٍ بِلَبَنٍ تِلْكَ الأَغْنَامِ.

وَعَبْدُ اللهِ بنُ أُرَيْقِطٍ الْكَافِرُ الْمُشْرِكُ عليهِ أَنْ يَحْضُرَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَيْ يسيرَ بالرَّسُولِ وَصَاحِبِهِ إِلَى يَثْرِبَ من طَرِيقٍ لا يسير فيه أحدٌ، عُرِفَ فيما بَعْدُ بطريقِ الهجرةِ.

أَمَّا الْغُلَامُ الصَّغِيرُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي بَكْرٍ فَمُهِمَّتُهُ جَمْعُ الْمَعْلُومَاتِ وَالْأَخْبَارِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ وَإِيصَالُهَا لِلْغَارِ، أَوْ لِمَنْ يَذْهَبُ إلى الغارِ.

لَا بُدَّ مِنْ أَخْذِ الأَسْبَابِ بَعْدَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ..

وَتَمَّتِ الْخُطَّةُ بِنَجاحٍ، فَمَا إِنْ عَلِمَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بِالْمُهِمَّةِ الْمُوكلَةِ إِلَيْهِ حَتَّى ذَهَبَ لِبَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ وَنَامَ فِي فِرَاشِهِ، وأَرْسَلَ الرَّسُولُ مَبلغًا مِنَ الْمَالِ لِعَبْدِ اللهِ بنِ أُرَيْقِطٍ لِقَاءَ تَأْمِينِ النَّاقَةِ ولَوازِمِ الْهِجْرَةِ.

وَبَاشَرَ عَبْدُ اللهِ عَمَلَهُ قبلَ لَيْلَةِ الهجْرَةِ وَحَمَلَ أخبارًا عاجلةً تفيدُ بِنِيَّةِ حِصَارِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ مِنْ قِبَلِ أَرْبَعِين شَابًّا مِنْ أَرْبَعِينَ قَبِيلَةً حَتَّى يَتَفَرَّق دَمُ الرَّسُولِ بين القَبائلِ!!.

وَأَمَّا أَسْمَاءُ فَوَافَقَتْ عَلَى الْقِيَامِ بِالْمُهِمَّةِ مِنْ صَبَاحِ الغَدِ.

وَلَكِنْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ حملتْ أَسْمَاءُ كنْيَةَ « ذَاتِ النِطَاقَيْنِ »، وَأَخَذَتْ بِشَارَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَتَمَنَّاها كُلُّ فَتَاةٍ، فَكَيْف حَدَثَ ذَلِكَ؟

في هذهِ الظُّروفِ العَصيبةِ كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْبِط الأَمْتِعَةَ، وَيُعِدُّهَا لِلسَّفَرِ على عجلٍ؛ ولَمْ يَجِدْ حبلًا لِيَرْبِطَ بِهِ الزَّادَ، فَسُرْعانَ ما حَلَّتْ أَسْمَاءُ الْمُشْكلةَ.. فأَخَذَتْ نِطَاقَهَا الَّذِي كَانَتْ تَرْبِطُهُ فِي وَسَطِهَا فشقَّتْهُ نِصْفَيْنِ، وَرَبَطَتْ بأحَدِهمَا الزَّادَ، وتَمَنْطَقَتْ[1] بالنِّصْفِ الآخرِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرَى ذَلِكَ كُلَّهُ وهو مسرورٌ منْ تَصَرُّفِها الذي يدلُّ على ذَكَاءٍ، فَسَمَّاهَا: ذاتَ النِّطَاقَيْنِ.

وَدَعَا لَهَا وَقَالَ: « **أَبْدَلَك اللَّهُ بِنِطَاقِك هَذَا نِطَاقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**[2] ».

وبدأتْ خيُوطُ الْهِجْرَةِ وخُطَّتُها الْمُحْكمَةُ تَسْرِي فِي شَوَارِعِ مَكَّةَ الْمُظلِمَةِ، فَفِي اللَّيْلِ الدامِسِ يَخْرُجُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْتِهِ وَيَرَى أَرْبَعِينَ شابًّا يُحِيطُون بِدارِهِ، وَيَقْرَأُ قَوْلَه تَعَالَى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ (يس :٩)، فَيَخِرُّون عَلَى الأَرْضِ مِنَ النُّعَاسِ، وَيَمُرُّ مِنْ بَيْنِهِمْ وَلَا يَشْعُرُونَ، وَيَدْعُو لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَحْفَظَهُ اللهُ مِنْ غَدْرِهِمْ.

وَيَصِلُ رسول الله ﷺ مَعَ صَاحِبِهِ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ،

---

(١) تَمَنْطَقَتْ: ربطته في وسطها وجعلته حزاماً.

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٩/٦)، ونقله ابن عبد البر في « الاستيعاب » (٤/١٧٨٢)، وابن حجر في « الإصابة » (٧/٤٨٧). وهذا حديث مرسل غير مسند، فالزبير بن بكار توفي سنة (٢٥٦هـ)، ولم يذكر عمن سمع هذا الحديث.

ويجلسانِ هُنَاكَ فِي جَوٍّ مِنَ الْوَحْشَةِ، وَيَحْزَنُ أَبُو بَكْرٍ، وَيَشْعُرُ رَسُولُ الرَّحْمَةِ بِحُزْنِ صَاحِبِهِ، وَيُطَمْئِنُهُ قَائِلًا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التَّوبة:٤)

ومعَ بزوغِ فَجْرِ اليومِ التالي تخْرجُ أَسْمَاءُ نَحْوَ الْغَارِ الَّذِي يَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ حَمْلِهَا جَنِينًا فِي رَحِمِهَا إِلَّا أَنَّهَا تَحَمَّلَتِ الْمَشَاقَّ، وَوَصَلَتْ هُنَاكَ، وَاطْمَأَنَّتْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَبِيهَا، وَبَعْدَ أَنْ زَوَّدَتْهُمَا بِالْأَخْبَارِ وَبَعْضِ الْمَاءِ وَالطَّعَامِ قَفَلَتْ رَاجِعَةً إِلَى مَكَّةَ، وَمَا إِنْ وَصَلَتْ بَيْتَهَا حَتَّى كَانَ الرَّاعِي عَامِرُ بْنَ فُهَيْرَةَ قَدْ مَسَحَ آثَارَ أَقْدَامِ الثَّلَاثَةِ بقطيعِ أغنامِهِ.

عَجِزَتْ قُرَيْشٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَكَانِ الرَّسُولِ فجُنَّ جُنُونُهَا، فَقَدْ تَمَّ اعْتِقَالُ الْفَتَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَجِيءَ بِهِ إِلَى فِنَاءِ الكعبةِ لِلتَّحْقِيقِ، وَقَد أَوْسَعُوه ضَرْبًا؛ وَلَكِنْ لَا جَدْوَى، وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ يُهْرَعُ لِبَيْتِ أَبِي بَكْرٍ يَطْرُقُ الْبَابَ بشدةٍ، وَالشَّرَرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَتَفْتَحُ لَهُ أَسْمَاءُ، وَيَسْأَلُها عَنْ أَبِيهَا، وتقولُ: إِنَّهَا لَا تَعْرِفُ شيئًا، فَيلْطُمُهَا لَطْمَةً عَلَى وَجْهِهَا فَيَقَعُ مِنْها قُرْطُهَا.

بَعْدَ أَنْ أخفقَ الْكُفَّارُ فِي مَعْرِفَةِ مَكَانِ الرَّسُولِ وَأَبي بكرٍ أَعْلَنُوا عَنْ جَائِزَةٍ مِقْدَارُهَا مِئَةٌ مِنَ الْإِبِلِ لِمَنْ يَأْتِي بِمُحَمَّدٍ حَيًّا أَوْ مَيْتًا، وَهُرِعَ الطَّامعونَ يَبْحَثُونَ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

وأخيرًا وَصَلَتِ الْأَخْبَارُ الْمُفرحةُ فَقَدْ وَصَل الْمَوْكِبُ النَّبَوِيُّ إِلَى يَثْرِبَ بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ خُرُوجِهِمَا مِنْ مَكَّةَ، وَسَبْعَةٍ مِنْ وقتِ مُغادَرَتِهِما الْغَارَ.

إِشْتَاقَتْ أَسْمَاءُ لِرَسُولِ اللهِ وَلِوَالِدِهَا فَعَزَمتْ عَلَى اللِّحَاقِ بِهِمَا، فنَصَحَهَا الْكَثِيرُونَ بِتَأْجِيلِ الْهِجْرَةِ رَيْثَمَا تَضَعُ مَولودَها الْمُنْتَظَرَ وَلَكِنَّهَا رَفَضَتْ.

وَهَا هِيَ تَقْطَعُ الصَّحْرَاءَ اللاهِبَةَ مُغادِرَةً مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى طَرِيقِ الْهِجْرَةِ، وَمَا كَادَتْ تَبْلُغُ قُبَاءَ عِنْدَ مَشَارِفِ الْمَدِينَةِ الْمُنورةِ حَتَّى شَعَرَتْ بِآلامِ الْوِلَادَةِ.

وحُمِلَ الْمَوْلُودُ الْأَوَّلُ (عبدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ) إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فقبَّلَهُ وَحَنَّكَهُ وسمَّاهُ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا دَخَلَ جَوْفَ عبدِ اللهِ رِيْقُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وَحَمَلَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ وَطَافُوا بينَ أحياءِ اليهودِ مهلِّلينِ مُكبِّرينَ مُتَحَدِّينَ الَّذينَ أشاعُوا أَنَّ نِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ سُحِرْنَ وَلَا يُنْجِبْنَ ذُكُورًا بَعْدَ الْيَوْمِ.

وَارْتاحتْ أَسْمَاءُ لِرُؤْيَةِ الرَّسُولِ وَأَبِيهَا وَزَوْجِهَا وَابْنِهَا الصَّغِيرِ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَاشَتْ هُنَاكَ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ مُكافِحَةً مُثَابِرَةً، وَقَدْ أَنْجَبَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَوْلَادٍ تَرَبَّوا عَلَى مَحَبَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَتْ فَرْحَتُهَا كَبِيرَةً لَمَّا عَلِمَتْ بِإِسْلَامِ أَخِيهَا عَبْدِ الْكَعْبَةِ، فَغيَّرَهُ رسُولُ اللهِ إِلَى عبدِ الرَّحمنِ الَّذِي الْتَحَقَ بِالْمُسْلِمِينَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَأَمَّا جَدُّهَا أَبو قُحَافَةَ فَأَسْلَمَ يومَ فَتْحِ مَكَّةَ.

وَلَكِنَّ الَّذِي كَانَ يُقْلِقُ أَسْمَاءَ أَنَّ أُمَّهَا « قتيلةَ ابْنَةَ عَبْدِ العزَّى » بَقِيَتْ عَلَى شِرْكِهَا وَلَمْ تَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وكانَ أَبُو بكرٍ قَدْ طَلَّقَهَا في مكةَ.

وَذَاتَ يَوْمٍ جَاءَهَا خبرٌ احتارتْ فِيهِ!!

قِيلَ لَهَا: إنَّ أمَّهَا فِي طَرِيقِهَا لزِيارتِها جالبةً مَعَهَا الْهَدَايَا، فَلَمْ تَشَأْ أَسْمَاءُ «رضي الله عنها » أَنْ تَسْتَقْبِلَ وَالِدَتَهَا وَتَقْبَلَ هَدَايَاهَا حَتَّى تَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وحتَّى تَعْرِفَ الحُكْمَ الشَّرْعِيَّ بِذَلِكَ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ راغِبةً فِي برِّها وَالْإحْسَانِ إِلَيْهَا؛ فَسَأَلَتْ أُخْتَهَا عَائِشَةَ «رضي الله عنها » : هَلْ يَجُوزُ لِي أَنْ أَسْتَقْبِلَ أمِّي الْمُشْرِكَةَ أَمْ لَا!؟ فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَمَا إِنْ انْتَهَتْ عَائِشَةُ مِنْ عرضِ مشكلةِ أَسْمَاءَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**، (الْمُمْتَحِنَة:٨)

عندها استقبلَتْ أسماءُ أمَّها خيرَ استقبالٍ، وقامت بإكرامِها بما يليقُ بها.

عَاشَتْ أَسْمَاءُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حَيَاةً بَعِيدَةً عَنِ اللَّهْوِ والتَّرَفِ، تَعْمَلُ فِي بَيْتِهَا، وَتُرَبِّي صِغَارَهَا على الإسلامِ والآدابِ، كَانَتْ كَرِيمَةً مُنفقةً مالها فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ تُسَاعِدُ الْفُقَرَاءَ، وتُمَرِّضُ الْمرِيضَ، وَتَعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ وَالْفِقْهَ، حَيْثُ قَالَ عَنْهَا زَوْجُهَا الزُّبير: (ما رَأَيْتُ أحدًا قطُّ[1] أجوَدَ[2] مِنْ عَائِشَةَ وأسماءَ).

***

(١) قطُّ : أبدًا.

(٢) أجود : أكرم.

أُسَيْدُ بْنُ ظُهَيْرٍ

فارسُ المدرسةِ

تَرَعْرَعَ أُسَيْدُ بْنُ ظُهَيْرِ بْنِ رَافِعِ الْخَزْرَجِيُّ الأَنْصَارِيُّ فِي رُبُوعِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ بَيْن أَحْيَائِهَا وبَسَاتِينِهَا.

وكَانَ يَلْعَبُ كثيرًا مَعَ ابْنِ عَمِّهِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، وكثيرًا مَا كَانَا يَذْهَبَان إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ، وللاستماعِ إِلى أَحادِيثِهِ ﷺ.

نَمَا أُسَيْدٌ وَنَمَتْ مَعَهُ الشَّجَاعَةُ والأصالةُ، وكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ وَهم يَعيشونَ معَ سَيِّدِ الشُّجْعَانِ، وَفَارِسِ الأَنَامِ.

كَانَ وَالِدُهُ ظُهَيْرُ بْنُ رَافِعٍ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةَ يَوْمَ غَادَرَ يَثْرِبَ عَدَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَلْتَقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ سرًّا فِي الْعَقَبَةِ. وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ مَقْدِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ بَعِدَّةِ سَنَوَاتٍ.

عَادَ ظُهَيْرُ بْنُ رَافِعٍ بَعْدَ أَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وصارَ يَنْشُر الإِسْلَامَ فِي بَيْتِهِ وَفِي مَدِينَتِهِ، وبَدَأَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ، فَحَبَّبَ الإِسْلَامَ إِلَى وَلَدَيْهِ أُسَيْدٍ الطِّفْلِ اليَافِعِ، وَإِلَى ابْنِهِ الآخَرِ أَنَسٍ.

وَمَا إِنْ وَصَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى كَانَ أُسَيْدٌ مِنْ أَوَائِلِ الْمُسْتقبلينَ لَهُ مع الْمُسلمِين في الْمَدينةِ الْمُنوَّرةِ.

وَمَا لَبِثَ أَنِ انْضَمَّ إِلَى مَوْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَرَّتِ الأَيَّامُ فحفظٌ الْكَثِيرَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وكَانَ وَالِدُهُ يَجْمَع إِخْوَتَهُ فِي الْبَيْتِ وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ، وَيُعَلِّمُهُمْ آدَابَ الإِسْلَامِ حَتَّى نَمَا أُسَيْدٌ وترعرعَ عَلَى فَضَائِلِ الإِسْلَامِ.

هَا هِيَ قُرَيْشٌ تَجَهِّزُ حَمْلَتَهَا فِي السَّنَةِ الثَّالثةِ لِلْهِجْرَةِ للانْقِضَاضِ عَلَى مَهْدِ الدَّعْوَةِ فِي بِدَايَتِهَا، وَيَنْفِرُ الْمُسْلِمُونَ لِلدِّفَاعِ عَنِ دِيْنِ اللهِ رِجَالًا وَنِساءً وشَبَابًا،

وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ أُسَيْدٌ الَّذِي عَرَفَ مَعْنَى الْجِهَادِ وَالِاسْتِشْهَادِ، وَكَمْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ مجاهدًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَكِنْ صِغَرَ سِنِّهِ جَعَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ بَعْضِ الصِّغَار.

عَادَ أُسَيْدٌ وَهُوَ مُتَشَوِّقٌ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَمْ تَتَحَقَّقْ أُمْنِيَّتُه إِلَّا فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ شابًّا بطلًا، وَشَهِدَ مَا بَعْدَهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ، وَتَزَوَّجَ مِنْ أُمَامَةَ بِنْتِ رَافِعٍ (رضي اللهُ عَنْهَا) فَوَلَدَتْ لَهُ ثابتًا ومحمدًا وَأُمَّ كُلْثُومٍ وَأُمَّ الْحَسَنِ، وَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ مجاهدًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَى أَنْ وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ فِي عَهْدِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أَبِي ثَابِتٍ أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ، الَّذِي تَرَكَ لِلْمُسْلِمِين أثرًا وموقفًا رائعًا فِي حُبِّ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

الْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ

في بيتِهِ كانَ الاجْتِماعُ السرِّيُّ

عُمْرُهُ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا، سَمِعَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا سَمِعَ أَهْلُ مَكَّةَ، وَاشْتَاقَتْ نَفْسُهُ لِلِقَائِهِ وَمُبَايَعَتِهِ.

كَمْ سَعِدَ بَلِقَاءِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عِنْدَمَا عَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَقَالَ لَهُ: كُنت أبْحَثُ عَنْ مُحَمَّدٍ، وَهَا أَنْتَ قدْ جِئْتِنِي تَعْرِضُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

فَرِحَ أَبُو بَكْرٍ بِإِسْلَامِهِ، وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى مُحَمّدٍ ﷺ يُبَشِّرُه بِإِسْلَامِهِ.

لَمْ يَكُنْ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَهَا يَتَجَاوَزُ أَصَابِعَ الْيَدِينِ إِلَّا قَلِيلًا، مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعبدُ الرحمنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بنُ أبي وقاصٍ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ، وَآلُ يَاسِرٍ وَغَيْرُهُم.

كَانَ لَا يَمُرُّ يَوْمٌ إِلَّا تَشْهَدُ الدَّعْوَةُ إِقْبَالًا جَدِيدًا، وَوُجُوهًا مُشْرِقَةً تَزِيدُ مِنْ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ.

شَعَرَتْ قُرَيْشٌ بِخُطورةِ الْأَمْرِ، وَصَارَتْ تُؤْذِي مَنْ تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الضُّعَفَاءِ والْمَوَالِي الَّذِينَ انْضَمُّوا لِكَوكَبَةِ الْإِيمَانِ الْأُولَى، وَكَانَتْ تَتَرَبَّصُ بِالْآخَرِينَ وَتكِيدُ لَهُمْ.

اجْتَمَعَ كِبَارُ الصَّحَابَةِ يَوْمًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرِ قُرَيْشٍ وَمَكَائِدِها، فَالْمُسْلِمُونَ يَزْدَادُون كُلَّ يَوْمٍ، وَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى لِقَاءِ الرَّسُولِ كَيْ يَتَعلَّمُوا مِنْهُ مَا يَنْزِلُ بِهِ الْوَحْيُ مِنْ تعاليمِ الدِّينِ، وأخذوا يبحثونَ عنْ مكانٍ آمنٍ بعيدٍ

عن كفَّارِ قريشٍ وجواسيسهمْ.

اقْتَرَحَ الأَرْقَمُ أَنْ يَجْتَمِعَ الْمُسْلِمُونَ فِي دَارِهِ، فرحَ رَسُولُ اللهِ بالفِكْرَةِ، وَوَافَقَ لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ مِنْهَا:

- أَنَّ الأَرْقَمَ غُلَامٌ صَغِيرٌ، وبالتَّالي فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ شَكِّ كُفَّارِ قُرَيْشٍ.
- وَهُوَ مِنْ قَبِيلَةِ مَخْزُومٍ الْقَوِيَّةِ الَّتِي يُحْسَبُ لَهَا أَكْثَرُ مِنْ حِسَابٍ.
- تَقَعُ الدَّارُ قُرْبَ الصَّفَا، وَهِيَ مِنطَقَةٌ مُكْتَظَّةٌ بِالنَّاسِ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ بِالدَّاخِلِ إِلَيْهَا وَالْخَارِجِ مِنْهَا.

فَلَمَّا سَمِعَ الأَرْقَمُ مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ ﷺ طَارَ فَرَحًا، وَذَهَبَ يُعِدُّ دَارَهُ لِاسْتِقْبَالِ الرَّسُولِ وَصَحَابَتِهِ، جَهَّزَهَا أَيَّما تَجْهِيزٍ، وَأَعَدَّ مَجْلِسًا يَلِيقُ بِالْمُسلِمِينَ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ يَدْخُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، يَتَعَلَّمُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَنْزِلُ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَضَعُونَ الْخُطَطَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ، وَلِتَجَنُّبِ أَذَى قُرَيْشٍ.

وَالأَرْقَمُ يَقِفُ كَثِيرًا جَانِبَ الْبَابِ لِيَرْصُدَ حَرَكَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَذَاتَ يَوْمٍ رَأَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مُتَّجِهًا نَحْوَ بَيْتِهِ، فَخَافَ الغُلَامُ كَثِيرًا، وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَأَسْرَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَابَتِهِ يُخْبِرُهُمْ بِالَّذِي حَدَثَ، عِنْدَهَا أَخَذَ عُمَرُ يَطْرُقُ الْبَابَ بِقُوَّةٍ.

أَمَرَ رَسُولُ اللهِ الأَرْقَمَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ الْبَابَ، فَدَخَلَ عُمَرُ وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، وَفرِحَ الْمُسْلِمُونَ كثيراً، وحَمِدوا اللهَ؛ لِأَنَّ اللهَ اسْتَجَابَ دَعْوَةَ الرَّسُولِ ﷺ قَبلَ أَيَّامٍ عِنْدَمَا قَال: (اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَدِ العُمَرَيْنِ).

ويفرحُ الرسولُ بإسلامِ عمرَ، ويفرحُ المسلمونَ، ولكنَّ الغلامَ الصَّغيرَ يفرحُ أكثرَ منْ غيرِهِ، ويستنشِقُ مَعَانيَ الْفخرِ وَالاعْتزازِ، وَيَصِلُ عَدَدُ المسلمينَ أربعينَ مسلِمًا، ويتفَاخَرونَ ويخرجونَ مِنْ بيتِ الأرقمِ إلى شوارع مكَّةَ مُهلِلِيْنَ مكبِرِيْنَ، وَيَسْتَشاطُ الكفَّارُ غضَبًا، ويكْظِمونَ غيظَهُم، وَيَنتقمونَ بَعْدَ أيامٍ منِ الْفُقَراءِ وَالمساكِينِ، وَيَشْتَدُّ أذى قريشٍ، وَيَأْمرُ الرسولُ أصْحابَهُ بِالهجْرةِ، وَيُهاجرُ الأَرْقمُ قَبْلَ الرَّسولِ الْكريمِ، وينتظرُ قدومَ حبيبِهِ بفارغِ الصَّبرِ، ويستقبلُهُ معَ أصحابِهِ، ويؤاخي الرسولُ بينهُ وبينَ زيدِ بنِ سهلٍ، ويشهدُ الأرقمُ غزوة بدرٍ، ويفرحُ فرحتينِ: فرحةً بانتصارِ المسلمين، وفرحةً بالسيفِ الذي منحه إياه رسولُ اللهِ.

ويَغْزو بهِ باقِي الْغزواتِ وَيحتفظُ بهِ، وَيرِثَهُ أولادُهُ بَعْدَ مماتِهِ عامَ خمسةٍ وخمسينَ من الهجرةِ، وعمرُهُ ثلاثةٌ وثمانونَ عامًا، ويُصلِّي عليهِ سعدُ بن أبي وقاصٍ بوصيةٍ منْهُ.

رحِمَكَ الله يا فتى الشُّجعانِ، ورضي الله عنْكَ وعنِ الصَّحابةِ أجمعينَ.

***

البراءُ بْنُ عازِبٍ

الطالبُ الذي يبحثُ عَنِ الحقيقةِ

لَمْ يَبْلُغِ الْبَراءُ بْنُ عَازِبٍ التَّاسِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا سَمِعَ أَنَّ رجلًا قَدِمَ مِنْ مَكَّةَ يُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ، سَأَلَ الْبَرَاءُ أَحَدَ الرِّجَالِ: مَا الْقُرْآنُ؟

أَجَابَهُ الرَّجُلُ: إِنَّهُ كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَهُ عَلَى رَجُلٍ فِي مَكَّةَ اسْمُهُ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ.

سَأَلَ الْبَرَاءُ الرَّجُلَ: وَهَلْ تَحْفَظُ شيئًا مِنْهُ؟

قَالَ الرَّجُلُ: نَعَمْ، وَلَكِنْ هُنَاكَ مَنْ يَحْفَظُهُ أَحْسَنَ مِنِّي، فَإِذَا أَرَدْتَ أَخَذْتُكَ إِلَيْهِ؟

ذَهَبَ الْبَرَاءُ بْنِ عَازِبٍ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَصَارَ يَسْتَمِعُ إِلَى كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ بَشَرٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى، لَهُ مَذاقُهُ الْخَاصُّ وَحَلَاوَتُهُ الَّتِي تُخَالِطُ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ.

حَسُنَ إِسْلَامُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَصَارَ يُلَازِمُ مُصْعَبًا لِيَحْفَظَ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى.

وَعِنْدَمَا وَصَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ البَراءُ بْنِ عَازِبٍ مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ خَرَجُوا لِاسْتِقْبَالِهِ، وَسُرْعانَ مَا عَرَضَ عَلَيْهِ الْبَيْعَةَ وَهُوَ ابْنُ الْعَاشِرَةِ، وَظَلَّ الْبَرَاءُ مُلْتَزِمًا في مَدْرَسَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا، وَيَحْفَظُ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَسْتَمِعُ إِلَى الْأَحَادِيثِ مِنْ رسولِ اللهِ، وَيَرْوِي لِلنَّاسِ مَا تَعَلَّمَهُ مِنْها.

وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ؛ وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ هُرِعَ الْبَرَاءُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْدِقائِهِ لِلْمُشَارَكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَكَانَ مَعَهُ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَغَيْرُهُمْ. فَلَمَّا اسْتَعْرَضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ردَّهُمْ جَمِيعًا إِلَّا عُمَيْرَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ لِشَفَاعَةِ أَخِيهِ سَعْدِ بنِ أبي وقاصٍ رضي الله عنهما.

رَجَعَ الْبَرَاءُ مع أَصْحَابِهِ وَهُمْ فِي شَوْقٍ لِنُصْرَةِ الإِسلامِ، وَحَزِنُوا لِرُجُوعِهِمْ، وَلَكِنَّ حُزْنَهَمْ تَبَدَّلَ فَرَحًا بَعْدَ مَا عَلِمَوا بانْتِصارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ.

وَظَلَّ الْبَرَاءُ يَذْكُرُ اللَّحْظَةَ الَّتِي رَدَّهُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ كَثيرًا ما يَقُولُ: (اسْتَصْغَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنَا وَابْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فرَدَّنا يَوْمَ بَدْرٍ).

وَفِي السَنَةِ الثَّالِثَةِ ظَنَّ الْبَرَاءُ أَنَّهُ كَبِرَ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَسْمَحُ لَهُ بِالْمُشَارَكَةِ فِي غَزْوَةِ أُحدٍ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَشْفَقَ عَلَيْهِ لِصِغَرِ سِنِّهِ فَرَدَّهُ كَمَا ردَّ غَيْرَه.

وَفِي السَّنةِ الخامِسَةِ جَاءَتِ الأَخبَارُ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِي طَرِيقِهِمْ إِلى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، فَأَخَذَ الرَّسُولُ بِمَشُورَةِ سَلْمَانَ الفَارسيّ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ حَتَّى يَمْنَعَ الأَعْدَاءَ مِنْ دُخُولِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْبَرَاءُ يَعْمَل بِهِمَّةٍ ونَشَاطٍ، يُسَاعِدُ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، يَحْمَلُ الْفَأْسَ، ويضربُ بِهِ الأَرْضَ، وَيَنقلُ الترابَ، وَظَلَّ يَعْمَلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عِدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى اطْمَأَنُوا أنَّ الْمُشركينَ لَنْ يستطيعوا اجْتِيازَ الخندَقِ.

وبَعْدَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ شَعَرَ الْبَرَاءُ أَنَّهُ صَارَ رجُلًا يُعتمدُ عَلَيْهِ، وَلَا خَوفَ بعدَ اليومِ مِنْ ردِّهِ لِصِغَرِ سِنِّهِ، بَلْ شَعَرَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ الْبَرَاءَ صَارَ بطَلًا مغوارًا فَلَمْ يَتْرُكْ غَزْوَةً مِنَ الْغَزَوَاتِ بَعْدَ الْخَنْدَقِ إِلَّا اشْتَرَكَ فِيهَا، حتى بلغ عَدَدُها خَمْسَ عَشْرَةَ غزْوَةً، وَسَافَرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَفَرًا.

وَبَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ارْتَدَّتْ بَعْضُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، فَأَرْسَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ جَيْشًا بقيَادَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لِقِتَالِهِم، وَكَانَ الْبَرَاءُ جُنْدِيًّا فِي هَذَا الْجَيْشِ، فَأَبْلَى بَلَاءً حسنًا فِي قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَنْتَظِرُ أمرًا مِن خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ لِلالْتِحَاقِ بِأَيِّ جَيْشٍ يُقَاتِلُ أَعْدَاءَ الدِّينِ.

وَتَوَالَتِ الْفُتُوحَاتُ الإِسْلَامِيَّةُ، جيشٌ فِي الْعِرَاقِ، وجيشٌ فِي الشَّامِ، وجيشٌ فِي فِلِسْطِينَ، وَالْمُسْلِمون يَنْدفِعُونَ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ، وَكَانَ الْبَرَاءُ مَعَ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ فِي الْعِرَاقِ يُقَاتِلُ كأَيِّ جُنْدِيٍّ يَهُمُّهُ إعْلَاءُ كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَظَلَّ كَذَلِكَ حَتَّى تَقَلَّدَ قِيادَةَ الْجَيْشِ الزَّاحِفِ عَلَى « قَزْوِينَ » وَهُوَ ابْنُ عِشْرِينَ سَنَةً، وَقَدْ وَلَّاهُ القِيادَةَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لَمَّا رَأَى بُطولَتَهُ وَشَجَاعَتَه.

نِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُ الْمُغِيرَةِ!.. لَقَدِ اسْتَسْلَمَتِ الْمُدُنُ الْكَبِيرَةُ، وتَهاوتِ القلاعُ تَحْتَ ضَرَبَاتِهِ، وَعَلَتْ صَيحاتُ: اللهُ أَكْبَرُ؛ فَوْقَ الْجِبَالِ، وَبَيْنَ الوِديانِ تُعْلِنُ الْوِلَايَةَ لِلَّهِ، وَوَصَلَ بقُواتِهِ إِلَى أَذْرَبَيْجَانَ، وَنَشَرَ الإِسْلَامَ فِي رُبُوعِ تِلْكَ الْبِلَادِ.، وَدَخَلَ النَّاسُ في دِينِ اللهِ أفواجًا، وَبُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ، وَارْتَفَعَ صَوْتُ: اللهُ أَكْبَرُ؛ يجلْجلُ فِي أَرْجَاءِ تِلْكَ الْبِلَادِ.

رَحِمَ اللَّهُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ الَّذِي أَرْسَى قَوَاعِدَ الإِسْلَامِ فِي آسِيا الْوُسْطَى، وغيرِها مِنْ بِلادِ الْمُسلِمِينَ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُ نِبْرَاسًا لأَجْيَالِ الْمُسْلِمِينَ يُضِيءُ لَهُمْ طَرِيقَ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ.

***

أَمَةُ بِنْتُ خَالد
بْنِ سَعِيدَ بْنِ الْعَاصِ

التِّلْمِيذَةُ اللَّطِيفَةُ

كَانَتْ طِفْلَةً صَغِيرَةً لَمْ تَتَجَاوَزْ أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ أَوْ خَمْسَةً عِنْدَمَا وَصَلَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، كَانَ أَبُوهَا مِنَ الصَّحَابَةِ السَّابقِينَ إِلَى الإِسْلَامِ، هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ مَعَ أُمِّهَا أَمِينَةَ بِنْتِ خَلَفٍ، حِين اشْتَدَّ الأَذَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي مَكَّةَ، وهُنَاكَ وُلِدَتْ أَمَةُ وَأَخُوهَا سَعِيدٌ، فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا عَلَى بَيْتٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَعْمَلُ بتَعَاليمِ الإِسْلَامِ.

وَلَمْ تنسَ أَنْ تُبَلِّغَ رَسُولَ اللهِ أَمَانَةً عَظِيمَةً يومَ ركبَتْ فِي إِحْدَى السَّفِينَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَقلَّتْهُمْ إِلَى الشَّاطِئِ الْقَرِيبِ مِنْ يَثْرِبَ، ويومَئذٍ كَانَ فِي وَدَاعِهِمْ مَلِكُ الْحَبَشَةِ النَّجَاشِيُّ.

فَمَا إِنْ رَأَتْ رَسُولَ اللهِ حَتَّى قَالَتْ لَهُ: سَمِعْتُ النَّجَاشِيَّ يَوْمَ خَرَجْنَا يَقُولُ لِأَصْحَابِ السَّفِينَتَيْنِ: أَقْرِئُوا جميعاً رَسُولَ اللهِ مِنِّي السَّلَامَ، قَالَتْ: وَهَا أَنَا أُقْرِئُكَ سَلامَهُ يَا رَسُولَ اللهِ.

سُرَّ رَسُولُ اللهِ مِمَّنْ أَرْسَلَ لهُ السَّلَامَ، وَسُرَّ مِنَ الطِّفْلَةِ الصَّغِيرَةِ أَمَةَ بِنْتِ خَالِدٍ الَّتِي أَبلَغَتْهُ إِيَّاهُ.

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيمًا عَطُوفًا عَلَى الأَطْفَالِ، يُلاعبُهم وَيُلاطِفُهمْ، ويُكَنِّيهِمْ[1]، وَفِي الزِّيَارَةِ الثَّانِيَةِ لِلرَّسُولِ صَحِبَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ ابْنَتَهُ الذَّكِيَّةَ أَمَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَعَا لَهَا بِطُولِ الْعُمُرِ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهَا لَقَبًا جميلًا كَمَا كانَ يَفْعَلُ مَعَ كَثِيرٍ مِنْ صِغَارِ الصَّحابةِ فكنَّاها بأُمِّ خَالِدٍ ؛ نَسَبَةً لِاسْم أَبِيهَا خَالِدِ بْنِ

(١) يُكَنِّيهمْ: الكنية: ابو فلان او ام فلان.

سَعِيدٍ. وَصَارَ يُلاطِفُها وَيُلاعِبُها، ولندَعْ أَمَةَ تقُصُّ عَلَيْنَا مَا جَرَى، تَقُولُ:

« أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَبِي وعَلَيَّ قَمِيصٌ أصْفَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: « سنا.. سنا »، وَهِيَ كَلِمَةٌ بِالْحَبَشِيَّةِ تَعْنِي « حَسَنٌ وَجَمِيلٌ »، فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَامْتَعَضَ[1] أَبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « دَعْهَا »، ثُمَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ: « أَبْلِي وَأَخْلِقِي[2]، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي »، وَهُوَ كَلَامٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَرَبِ مَعْنَاهُ الدُّعَاءُ بِطُولِ البقاء.

وَذَاتَ يَوْمٍ أُتِيَ لِرَسُولِ اللهِ بِثِيَابٍ فَكَانَ مِنْهَا خَمِيصَةٌ[3] سَوْدَاءُ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: **« مَنْ تَرَوْنَ نَكْسُو[4] هَذِهِ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَتَكَلَّمُوا، فَقَالَ ﷺ: ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ، فَجِيءَ بِهَا تُحْمَلُ، وَكَانَتْ جُوَيْرِيَةً صَغِيرَةً، فَأَعْطَاهَا الثَّوْبَ وَأَلْبَسَهَا إِيَّاهُ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ، وَكَانَ فِي الثَّوْبِ أَعْلَامٌ "أَيْ خُطُوطٌ »فَجَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ يُشِيرُ إِلَى أَعْلَامِهِ بِيَدِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَيَقُولُ: سنا يَا أُمَّ خَالِدٍ، سنا يَا أُمَّ خَالِدٍ « أَيْ هَذَا حَسَنٌ، هَذَا جَمِيلٌ"، وَذَلِكَ حَتَّى تَفْرَحَ بِالثَّوْبِ وَتُسَرَّ بِهِ.**

اقْتَرَبَتْ أَمَةُ بِنْتُ خَالِدٍ كثيراً مِنَ النَّبِيِّ، وَكَانَتْ إِحْدَى تِلْمِيذَاتِ مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ رَوَتْ عَنْهُ ﷺ عِدَّةَ أَحَادِيثَ عَلَّمَتْهَا النَّاسَ.

تَزَوَّجَتْ أَمَةُ بِنْتُ خَالِدٍ مِنَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، أَحَدِ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ،

(١) امتعض: ساءه فعل ذلك.

(٢) أَبْلِي وَأَخْلِقِي: كما نقول اليوم لمن يرتدي ثياباً جديدة: تعيش وتبلوي.

(٣) خَمِيصَةٌ: كِسَاءٌ مِنْ خَزٍّ أَوْ صُوفٍ أَسْوَد.

(٤) نَكْسُو: نكسوها أي ترتديه.

وَوَلَدَتْ لَـهُ عَمْراً[1] وخَالِداً، وَبِبَرَكَـةِ دُعَـاءِ النَّبِـيِّ، عَاشَـتْ طويـلاً، حَتَّـى قِيلَ: لَـمْ تعِشْ امْرَأَةٌ مِنَ الصَّحَابَـةِ مَـا عَاشَـتْ أُمُّ خَالِدٍ، وقـدْ تُوُفِّيَـتْ عَـامَ تِسْـعِينَ للهِجْرَةِ، فكيفَ لا تَعِيشُ طويـلًا وقَدْ دَعَـا لَهَا رَسُولُ اللهِ بِطُول العُمُرِ، كما دَعَـا لأَنَسِ بنِ مالِكٍ فَعَاشَ أَكْثَرَ مِنْ مِئَـةِ عَامٍ.

***

(١) هو عمرو، ولكن تحذف الواو في حالة النصب فيصبح عَمْراً.

أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ

كَاتِمُ سِرِّ أُسْتَاذِهِ

عِنْدَمَا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، تَسَابَقَ الأَنْصَارُ لِخِدْمَتِهِ وَإِكْرَامِهِ والحَفَاوةِ بِه..، فَقَدْ حَازَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ عَلَى شَرَفِ ضِيَافَةِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدَّمَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ابْنَهُ قَيْسًا لِحِرَاسَةِ النَّبِيِّ وَالْقِيَامِ بِحِمايَتِهِ، وَسَارَعَ الْجَمِيعُ لِلْمُشَارَكَةِ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَبَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَجَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِنْتُ مِلْحَانَ بِابْنِهَا أَنَسٍ الَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ تَعْرِضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ابْنَهَا فَقَالَت: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا ابْنِي غُلَامٌ كَاتِبٌ لبيبٌ[1] أتيتُ بِهِ كَيْ يَخْدِمَكَ.

كَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ الْغُلَامِ عَظِيمَةً عِنْدَمَا وَافَقَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى طَلَبِ أُمِّهِ، وَضَمَّهُ إِلَى بَيْتِهِ الشَّرِيفِ!.

وَبَدَأَ أَنَسٌ يَنْهَلُ مِنْ مَعِينِ التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَمَن نَبْعِ الْخَيْرِ الْفَيَّاضِ، فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَتَطَبَّعَ بِتِلْكَ الطِّبَاعِ الْعَظِيمَةِ، وَاكْتَسَى حُلَّةَ الإيمَانِ بِإِخْلَاصِه فِي خِدْمَةِ سَيِّدِ الأَنَامِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بقِيَ على ذلكَ عشرَ سنينَ لمْ يرَ منْهُ إلا الذَّوقَ الرَّفيعَ والمعامَلَةَ الحَسَنَةَ.

قَالَ أَنَسٌ: فَخَدَمْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَاللَّه مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا؟

وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ قَطُّ: أَسَأْتَ.. أَوْ بِئْسَ مَا صَنَعْتَ!.

أَحَبَّ أَنَسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ حُبّاً شَدِيداً، وَأَحَبَّه الرَّسُولُ ﷺ لِتَفَانِيهِ وَإِخْلَاصِهِ فِي خِدْمَتِهِ، ولإِقْبَالِهِ عَلَى التَّعَلُّمِ والتَّفَقُّهِ في الدِّينِ.

(١) لبيب: ذكِي.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَادَاهُ يَقُولُ لَهُ: **(يَا بُنَيَّ)**،وَكَنَّاهُ مُنْذُ صِغَرِهِ بِأَبِي حَمْزَةَ، وَكَان يُمَازِحُهُ فَيَقُولُ لَهُ: **(يَا ذَا الأُذُنَيْنِ)**.

وكان رضي الله عنه صاحبَ سرٍّ لا يفشيه مهما كان السببُ، فالسرُّ أمانةٌ، وَلْنَدَعْ أنسًا يحدِّثُنا عَنْ ذلِكَ:

قَالَ: « أتى عليَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا ألعَبُ مَعَ الغلْمانِ، فسلَّمَ عَلَيْنَا فَبَعَثَني إِلَى حَاجَةٍ فَأَبْطَأْتُ عَلَى أمّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ[1]؟، قُلْت: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ، قالتْ: مَا حَاجَتُهُ؟، قُلْتُ: إنَّهَا سرٌّ، قَالَتْ: لَا تخبرنّ بسرِّ رَسُولِ اللَّهِ أَحَدًا.

نِعْمَ الابْنُ الَّذِي حَفِظَ السِّرَّ!.. ونِعْمَتِ الأمُّ الَّتِي لَمْ تُلِحَّ[2] عَلَى ابْنِهَا الصَّغِيرِ كَيْ يُخْبِرَهَا بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَكَّرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِابْنِهَا الَّذِي وَهَبَتْهُ لِخِدْمَةِ النَّبِيِّ، ثُمَّ عَزَمَتْ عَلَى أَمْرٍ..

تُرَى مَاذَا سَتَفْعَلُ؟

لَقَد ذَهَبَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خُوَيْدِمُكَ[3] أنيسٌ[4] ادْعُ اللَّهَ لَهُ!..

لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الأُمُّ الرَّؤُومُ لِتَنْسى فَلْذَةَ كَبِدِهَا مِنْ أَنْ تَنَالَهُ بَرَكَةُ دَعْوَةِ النَّبِيِّ

(١) ما حبسك؟: لماذا تأخرت؟.

(٢) تُلِحّ: تطلب وتصرّ.

(٣) خُوَيْدِمُكَ : تصغير خادمك تأدبًا مع الرسول.

(٤) أُنَيْسٌ: تصغير أَنَس على عادة العرب.

ﷺ، فَسَارَعَتْ لِتَطْلُبَ ذَلِكَ الطَّلَبَ.. وَوَقَفَتْ تَنْتَظِرُ رَدَّ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَرَفَعَ النبيُّ يَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ وَقَالَ: (**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَطِلْ عُمُرَهُ، وَاغْفِرْ ذَنْبَهُ.**)

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَ نَبِيِّهِ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ..، وَلْنَسْمَعْ أَنَسًا يُحَدِّثُنَا عَنْ ذَلِكَ.

قَالَ أَنَسٌ: فَقَد دَفَنْتُ مِنْ صُلْبِي مِئَةً غَيْرَ اثْنَيْنِ، أَوْ قَالَ: مِئَةً وَاثْنَيْنِ، وَإِنَّ ثِمَارِي تَحْمِلُ فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ، وَلَقَد بَقِيتُ حَتَّى سَئِمْتُ الْحَيَاةَ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّ أنسٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَحْرِصُ عَلَى حِفْظِ حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، وَقَدْ أَكْثَرَ مِنَ الرِّوَايَةِ حَتَّى عُدَّ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ رَوَوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحَدِيثَ.

وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُسْتَجَابَ الدُّعَاءِ؛ فَقَد شَكَا لَهُ أَحَدُ عُمَّالِه الْعَطَشَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ دَعَا، وَظَلَّ يَدْعُو حَتَّى جَاءَتْ سَحَابَةٌ كَجَنَاحِ الطَّيْرِ، فأمْطَرَتْ، فَقَال لِعَامِلِهِ: اُنْظُرْ أَيْن بَلَغَ الْمَاءُ، فَإِذَا هُوَ لَمْ يُجَاوِزْ أَرْضَهُ!.

وَكَانَ يُقْبِلُ عَلَى اللهِ فِي اللَّيْلِ فَيَقُومُ أكثرَ لَيْلِهِ في صلاتِهِ ودعائِهِ، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ ابْنِ أُمِّ سُلَيْمٍ، يَعْنِي أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ.

وَمَاتَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ، وَعُمْرُهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً.

•••

أبناءُ أُمِّ سَلَـمَةَ

أطفالٌ فِي رَوْضَةِ النَّبيِّ

وُلِدتْ أُمّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ فِي بَيْتٍ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَأَبُوهَا كَانَ سيدًا مِنْ سَادَاتِ بَنِي مَخْزُومٍ، لُقِّبَ بـ« زادِ الرَّاكِبِ » لِأَنَّهُ كَانَ يَكْفِي كُلَّ مَنْ يُسَافِرُ فِي قافِلَتِهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ.

تَزَوَّجتْ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ وَكَانَا مِنْ أَوَائِلِ منْ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ بَعْدَ أَنِ اشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ لِلْمُسْلِمِين، وَوَلَدَت هُنَاك ابْنَهَا سَلَمَةَ، ثُمَّ وَلَدَتْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عُمَرَ.

وَكَانَتْ فِيمَنْ تَحَرَّكُوا مِنَ الْحَبَشَةِ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ سَمَاعِهِم إشاعَةً تقولُ: إِنَّ قُرَيْشًا دَخَلَتِ الإِسْلَامَ، وَأَنَّهُ قَدِ انْتَشَرَ وَدَانَتْ بِه الْقَبَائِلُ هُنَاكَ، فَلَمَّا رَجَعُوا؛ وَجَدُوا أَنَّ الأَمْرَ مَازَالَ كَمَا كَانَ، وَبِذَلِكَ لَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الْحَبَشَةِ إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ إلا بِشَفَاعةِ أَحَدٍ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ.

دَخَلَت أُمُّ سَلَمَةَ وَزَوْجُهَا وَابْنُهَا فِي شَفَاعَةِ أَبِي طَالِبٍ وجِوَارِهِ، وبقيا فِيهَا حَتَّى تَحَرَّك النَّبِيُّ مهاجرًا إِلَى يَثْرِبَ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ عَزَمَا عَلَى الْخُرُوجِ، ولَكِنَّ أهلَهَا وَقَوْمَهَا رَفَضُوا خُرُوجَهَا، فَخَرَجَ أَبُو سَلَمَةَ وَسَلَمَةُ وَحْدَهُمَا، وَبَقِيَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مَعَ صَغِيرِهَا عُمَرَ، وَلَمَّا همَّتْ بِالْخُرُوجِ تَصَدَّى لَهَا أَهْلُ قَبِيلَةِ زَوْجِهَا وخَطَفُوا صَغِيرَهَا، وفُرِضَتْ عَلَيْهَا الإِقَامَةُ فِي قَبِيلَةِ أَهْلِهَا جَزاءً لَهَا.

ظَلَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ فِي حُزْنٍ شَدِيدٍ تَبْكِي فرَاقَ زَوْجِها وَابْنِها الصَّغِيرِ؛ حَتَّى رقَّ أَهْلُهَا لِحَالِهَا، وَتَرَكُوهَا تَرْحَلُ معَ صَغِيرِهَا، فَلَحِقَتْ بِهِمْ إلى يَثْرِبَ مُشْتَاقَةً لِرُؤْيَةِ الأَحِبَّةِ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَزَوْجِها وَصَغِيرِها.

وَهُنَاك الْتَمَّ الشَّمْلُ بَعْدَ غِيَابِ عَامٍ كَامِلٍ، وَسَكَنَتْ وَزَوْجُهَا وَوَلَدَاها قُرْبَ رَسُولِ اللهِ، ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ رُزِقَتْ بِبِنْتٍ جَمِيلَةٍ أَسْمَتْها « بَرَّة »، فَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ بِذَلِكَ بَارَكَ لَهُمَا.. وَلَكِنْ طَلَبَ مِنْهُمَا أَنْ يَخْتَارَا اسمًا غَيْرَ « برَّة » فَأَسْمَيَاها زَيْنَبَ، وَبَعْدَ عَامٍ وَلَدَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بنتًا أُخْرَى أَسْمَتْها دُرَّةَ.

فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ شَارَك أَبُو سَلَمَةَ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، وَفَرِحَ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ خَاضَ غِمَارَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ، وَأُصِيبَ بجُرْحٍ، ثُمَّ بَرَأَ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَقَضَ[1] بَعْدَ مُشَارَكَتِهِ فِي إِحْدَى السَّرَايَا[2]، وَتُوُفِّيَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ.

حَزِنَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَلَى زَوْجِهَا، وَلَمْ يَحْزَنْ مِنَ الأَوْلادِ إِلَّا سَلَمَةَ لِأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ سِنَّ الْوَعْيِ، وَأَمَّا الْبَقِيَّةُ فَلَمْ يَعُوا مَا حَصَلَ لَهُمْ.

كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مَعَ شِدَّةِ إِيمَانِهَا وَعُلُوِّ مَكانَتِها شَدِيدَةَ التَّوَاضُعِ، مُحِبَّةً لِلْجَميعِ، وكانَتْ عَلَى قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجَمَالِ، فَهِيَ إِلَى جَانِبِ ذلكَ كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِجَمَالِ الرُّوحِ، وَرَجاحَةِ الْعَقْلِ، وَخِفَّةِ الظِّلِّ.

وَلَمَّا انتهَتْ عِدَّتُها[3] تَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ لِخِطْبَتِها فَرَفَضَتْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ لَهَا عُمَرُ فَرَفَضَتْ، وذاتَ يومٍ اخْتارَتْ فِي أَمْرِهَا.

أَتَرُدُّ خَيْرَ الْبَشَرِ!؟

(١) انتقض: عاد يؤلمه.

(٢) السرية: المعركة التي يكلف الرسول صلى الله عليه وسلم بقيادتها أحد الصحابة، ولا يحضرها الرسول بنفسه.

(٣)العدة: المدة الزمنية التي لا تتزوج فيها المرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها.

فقَدْ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ مَنْ يَخْطُبُهَا لهُ فردَّتْ عَلَيْهِ رَدًّا جَمِيلًا:

فَذَكَرَتْ أَنَّهَا امْرَأَةٌ شَدِيدَةُ الْغَيْرَةِ، وَأَنَّهَا ذَاتُ عِيَالٍ صِغَارٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَوْلِيَائِهَا شَاهِدٌ فَيُزَوِّجُهَا.

فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ غَيْرَتِكِ؛ فَإِنِّي أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهَا عَنْكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ صِبْيَانِكِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَكْفِيهِمْ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ أَوْلِيَائِكَ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِكَ يَكْرَهُ ذَلِكَ.**

وَافَقَتْ أُمُّ سَلَمَةَ، وَتَمَّ الزَّوَاجُ..، وَصَارَتْ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ مَعَ أَوْلَادِهَا الصِّغَارِ زَيْنَبَ وَسَلَمَةَ وَعُمَرَ ودرَّةَ.

مَا أَجْمَلَ الْبَيْتَ الَّذِي ضَمَّ هَذِهِ الْأُسْرَةَ الرَّائِعَةَ!!

وَمَا أَرْوَعَ مَنْ ضَمَّ أَرْبَعَةَ أَطْفَالٍ وَأُمَّهُم إِلَى كَنَفِهِ!!

وَهُنَاك بَدَأَتْ مَسِيرَةُ التَّعْلِيمِ وَالْآدَابِ تَتَعَزَّزُ.

عَاشَ أَبْنَاءُ أُمِّ سَلَمَةَ فِي رِعَايَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَكَانَتِ ابْنَتُهَا زَيْنَبُ مِنْ أَرَقِّ الْأَطْفَالِ تَلْهُو وَتَلْعَبُ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَأَمَّا دُرَّةُ فَمَا زَالَتْ تَرْضَعُ.

مَرَّتِ الأَيَّامُ وَالسِّنونَ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَأَوْلَادُهَا فِي إِحْدَى حُجُراتِ نِسَاءِ النَّبِيِّ، يَسْمَعُونَ الْقرْآنَ الْكَرِيمَ، ويَحْفَظُونَ مَا يَقْدِرونَ عَلَيْهِ، ثم يَخْرُجُونَ ويَلْعَبُونَ وَيَمْرحونَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الأَطْفَالِ.

وَلَمَّا بَلَغَ سَلَمَةُ مَبْلَغَ الشَّبابِ، زَوَّجَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أمامةَ بِنْتِ عَمِّهِ

حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ أَحَبَّ أَعْمَامِهِ إِلَيْهِ.

وَلَمَّا كَبِرَتْ زَيْنَبُ صَارَتْ مِنْ أَفْقَهِ نِسَاءِ أَهْلِ زَمَانِهَا، فَدَأَبَتْ عَلَى حِفْظِ كُلِّ مَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ حَتَّى غَدَت عَلَى قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ.

وكَانَ لها ذِكْرَيَاتٌ جَمِيلَةٌ، وَمَوَاقِفُ طَرِيفَةٌ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِيَ طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ ظَلَّتْ تحتفِظُ بِهَا فِي ذاكِرتِها، مِنْهَا ذَلِكَ الْمَوْقِفُ الَّذِي حَدَّثَتْ بِهِ النَّاسَ.

قَالَت: **كُنْتُ أَلْحَقُ بِالنَّبِيِّ ﷺ أَحْيَانًا إِلَى مُغْتَسَلِه[1]، فَإِذَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ نَضَحَ[2] فِي وَجْهِي الْمَاءَ وَقَالَ لِي: « ارْجِعِي ».**

وَأَمَّا عُمَرُ فَقَدْ نَالَ شهرةً دُونَ إِخْوَتِهِ سَطَّرَتْهَا كُتُبُ الْحَدِيثِ وَالْآدَابِ.

فَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ يَجْلِسُ الرَّسُولُ عَلَى الْمَائِدَةِ وَمَعَهُ أَوْلَادُ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَ عُمَرُ صَغِيرًا، ابْنَ سِتِّ سِنِينَ؛ لَا يَعْرِفُ آدَابَ الطَّعَامِ، فَمَا إِنْ جَلَسَ لِلْمائِدَةِ حَتَّى مَدَّ يَدَهُ الْيُسْرى إِلَى وَسَطِ صَحْفَةِ الطَّعَامِ، وَلْنَدَعْ عُمَرَ يُحَدِّثُنَا بِمَا جَرَى:

قَالَ: كُنْتُ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ »، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طُعْمَتِي بَعْدُ!.

يَا لَهَا مِنْ آدَابٍ جَمِيلَةٍ، وَهَنِيئًا لِعُمَرَ الَّذِي تَعَلَّمَ، وَوَاظَبَ عَلَى هَذِهِ الْآدَابِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ.

(١) مغتسله: مكان استحمامه ووضوئه.

(٢) نضح الماء: رشه .

وَلَمَّا كَبِرَ عُمَرُ قَلِيلًا وَصَار يَعِي مَا حَوْلَهُ تَذَكَّرَ غَزْوَةَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاخْتَبَأَ مِنْ سِهامِ الْمُشْرِكِينَ فِي حِصْنِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ الْمَنِيعِ مَعَ صَدِيقِهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ إِلَى أَنِ انْجَلَى الحِصَارُ، وأسفرَ عَنْ هَزِيمَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَأَعْوَانِهِم.

وَأَمَّا أَصْغَرُهُمْ دُرَّةُ فَقَدْ لَقِيَتْ عِنَايَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ، وَاشْتُهِرَتْ بِالتَّقْوَى وَالْحِفْظِ وَتَعْلِيمِ صَدِيقَاتِها ما يَقُولُهُ الرَّسُولُ أَوْ يَفْعَلُهُ.

لَمْ تَكْتَمِلْ فَرْحَةُ الأُسْرَةِ بِرَسُولِ اللهِ إِلَّا بضعةَ أَعْوَامٍ وَبِضْعَةَ أَشْهُرٍ، فَهَا هُو ذا الْمُنَادِي يُنَادِي فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ: لَقَد تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَآخَرُ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ (الزمر).

لَقَدْ مَاتَ خَيْرُ الْبَشَرِ، حَزِنَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَلَى فِرَاقِ زَوْجِهَا كَمَا حَزِنَ أَوْلَادُهَا الأَرْبَعَةُ وَالْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا.

وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ قَدْ تَجَاوَزَ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، وَلَكِنَّهُ تَابَعَ مَسِيرَةَ الْعِلْمِ، وَكَانَ مَحْبُوبًا مِنْ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ حَتَّى إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَضَّلَهُ عَلَى ابْنِهِ، فَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ أَرَادَ الْخَلِيفَةُ أَنْ يُوَزِّعَ مَالًا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَا سِيَّمَا الشَّبَابُ مِنْهُمْ، فَأَعْطَى ابْنَهُ عَبْدَ اللهِ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِرهَمٍ، وَأَعْطَى عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، فَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ إِلى أَبِيهِ قَائِلًا: كَيْف تَفْرِضُ لِي ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَلِعُمَرَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ؟

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: هَاتِ أُمًّا مِثْلَ أُمِّ سَلَمَةَ يَا بُنَيَّ!.

حَبِيبُ بْنُ زَيْدِ
بْنِ عاصمٍ الأَنْصَارِيُّ

الطِّفلُ الذي بايعَ الرَّسُولَ

كَانَتْ نُسيبةُ بِنْتُ كَعْبٍ الْمَازِنِيَّةُ (أُمُّ عُمَارَةَ) مِنْ أَوَائِلِ أَهْلِ يَثْرِبَ دخولاً فِي الْإِسْلَامِ، فَقَدْ كَانَتْ إِحْدَى امْرَأَتَيْنِ بَايَعَتَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ، فِي بَيْعِةِ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ مَعَ زَوْجِهَا وَوَلَدِها حَبِيبٍ ؛ فكَيْفَ كانَ ذلكَ؟.

جَاءَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ بِصُحْبَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَرَهْطٍ[1] مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ ضِمْنَ وَفْدِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ التَقَوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي الْعَقَبَةِ قُرْبَ مَكَّةَ لَمُبايَعَتِهِ، وَكَان حَبِيبٌ وَقْتَهَا طِفْلاً صغيرًا، لمْ يتجاوزْ عشرةَ أعوامٍ، نَفَذَ نُورُ الْإِيمَانِ إِلَى قَلْبِهِ الصَّغِيرِ عندما كانَ يرى الرِّجالَ يصافحونَ الرَّسُولَ وهوَ يَقُولُ لَهُم: « **تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا تَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُم وَأَبْنَاءَكُم، وَلَكُمُ الْجَنَّةَ** ».

استمعَ الغلامُ الصَّغِيرُ إلى كَلامِ الرَّسُولِ، واسْتَمَعَ أَيْضًا إِلَى السَّبْعِينَ الذِينَ بَايَعُوهُ، وأَخِيرًا تشجَّعَ واقْتَرَبَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَسَطَ يَدَهُ الصَّغِيرَةَ بِيدِ رَسُولِ اللهِ وقالَ :

« أُبَايِعُك يَا رَسُولَ اللهِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَعَلَى نُصرَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ. »

سُرَّ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ هَذَا الْغُلَامِ الصَّغِيرِ، وَمِنْ هَذِهِ الأُسْرَةِ الَّتِي خَرَجَتْ تَقْطَعُ مِئَاتِ الأَمْيَالِ لِتُبَايِعَ رَسُولَ الرَّحْمَةِ.

(١) الرهط: جماعة من الناس .

وَمُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ بَاتَ النَّبِيُّ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَصْبَحَ الإِسْلامُ أَغْلَى عِنْدَهُ مِنْ رُوحِهِ وَحَيَاتِه.

رجعَ حبيبٌ مع قومِهِ فرِحًا مسرورًا، وكَمْ صارَ يَودُّ أَنْ يَصِلَ الرَّسُولُ إلى يَثْرِبَ، ويعيشَ بينهُمْ.

كادَ حبيبٌ يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ فِي طَرِيقِهِ إلى يَثْرِبَ، فَصَارَ يَخْرُجُ كُلَّ يومٍ يَتَرَقَّبُ وُصُولَ الْموكبِ العَظِيم.

وأَخيرًا طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَى الْجَمِيعَ.

لَقَدْ وَصَلَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وأبو بكرٍ إِلَى يَثْرِبَ..

فرِحَ حبيبٌ فَرَحًا شَدِيدًا، وَتَعَلَّق قَلْبُ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ بِالرَّسُولِ ﷺ، وَأَظْهَرَ إخلاصاً مُنْقَطِعَ النَّظِيرِ لِلإِسْلَامِ وَرَسُولِهِ.

ظَهَرَ ذَلِكَ جلياً يَوْمَ بَدْرٍ، حَيْثُ عَرَضَ حَبِيبٌ عَلَى النَّبِيِّ رُوحَهُ وَنَفْسَه فِدَاءً لِنُصْرَةِ دِينِ اللهِ، وَلَكِنْ بِسَبَبِ صِغَرِ سِنِّهِ لَمْ يَنَلْ شَرَفَ الْمُشَارَكَةِ فِي بَدْرٍ فَرَدَّه الرَّسُولُ كَمَا رَدَّ أَقْرَانَهُ (١).

وَفِي أُحُدٍ كادَ الرَّسُولُ أَنْ يردَّهُ أَيْضًا، ولَكِنْ بَعْدَ شَفَاعَةِ وَالِدَيْهِ سَمَحَ لَهُ أَنْ يَكُونَ بِمُؤَخِّرَةِ الْجَيْشِ مَعَ أُمِّهِ وَأَخِيهِ عَبْدِ اللهِ يَسْقُونَ الْعَطْشَى، وَيُدَاوُونَ الْجَرْحَى، وَأَمَّا الأَبُ فَقَدْ كَانَ فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ.

(١) أقرانه: في مثل سنه وعمره.

الْمَوْقِفُ عَصِيبٌ، رسولُ اللهِ تَتَنَاوَشُهُ السِّهامُ والنِّبالُ، وَقَدْ كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وَالْمُشْرِكُون يَقْتربُونَ مِنْهُ، الْمُسلِمونَ الذينَ رأوا مَا حَصَلَ لِلرَّسُولِ ﷺ هُرِعُوا وهُرِعَتْ أمُّ عمارةَ وَزَوْجُهَا وَابْنَاهَا يَسْتَمِيتُونَ فِي الدِّفاعِ عَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَبْلَتِ الأُسْرَةُ بَلَاءً حسنًا، فانهالَتْ عَلَيْهِمْ رِماحُ الْمُشْرِكِينَ وَسُيُوفُهُم وأمُّ عمارةَ تَذُبُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ فجُرِحَتْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ جُرْحًا بَيْنَ طَعْنَةِ رُمْحٍ أَوْ ضَرْبَةِ سَيْفٍ، كَمَا جُرِحَ وَلَدَاهَا وَزَوْجُهَا، وتمَّتْ حِمايةُ الرَّسُولِ ﷺ، وإسْعافُهُ.

وَحِينَ نَادَى النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، فِي أَصْحَابِهِ بَعْدَ أُحُدٍ لِلْخُرُوجِ لِمُطاردةِ قُرَيْشٍ، هَمَّتْ أُمُّ عُمَارَةَ لِلْخُرُوجِ مَعَهُمْ، لَكِنَّهَا لَمْ تَقْوَ عَلَى الْمُشَارَكَةِ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ بَعْدَ أَنْ أثقلَتْها جِرَاحُ يَوْمِ أمسِ.

وَحِينَ عَادَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ تِلْكَ الْغَزْوَةِ، أَرْسَلَ الرَّسُولُ أَخَاهَا عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبٍ لِيُطَمْئِنَهُ عَلَى أُمِّ عُمَارَةَ وأسْرَتِها لَما أَبْلَتْه هَذِهِ الْأَسْرَةُ مِنْ بَلَاءٍ فِي أُحَدٍ، فطَمْأنَهُ أَخُوهَا عَلَى سَلَامَتِهِمْ، فَسُرَّ النَّبِيُّ بِذَلِكَ، وَدَعَا لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا رُفَقَاءَهُ فِي الْجَنَّةِ.

عَاشَ حَبِيبٌ بَقِيَّةَ سَنَوَاتِ طُفُولَتِهِ وصِباهُ إِلَى جِوَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ يَشْعُرُ بِفَرْحَةٍ عارِمَةٍ، وَيَجِدُ سَعَادَةً كَبِيرَةً حِينَمَا يَحْضُرُ مَجَالِسَ النَّبِيِّ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ مَجْلِسٍ أَوْ تَجَمُّعٍ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ أَوْ خَارِجِهِ.

ظَلَّ حَبِيبٌ ملازماً لِلنَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى صَارَ شابًّا وَاشْتَدَّ عُودُهُ، حِينَهَا أَذِنَ لَهُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَن يَوْمِهَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا النَّبِيُّ فِي تِلْكَ

الْـمَرْحَلَةِ، وكانَ دائماً فِي الصُفُوفِ الأمَامِيَّةِ.

مَا بَيْنَ السَّنَةِ التَّاسِعَةِ وَالْعَاشِرَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، ارتدَّ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ نَبِيٌّ أُرْسِلَ إِلَى بَنِي حَنِيفَةَ فِي نَجْدٍ، والْتَفَّ حَوْلَهُ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ والطَّامِعِينَ، وَاسْتَشْرَى فَسَادُهُ، فَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ، أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ يَنْهَاهُ فِيهَا عَنْ ضَلالِهِ، وَأَنْ يَرْجِعَ لِلدِّينِ الصَّحِيحِ، وَأَحَبَّ أَنْ يُرْسِلَهَا مَعَ رَجُلٍ لَا يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ، وَبَعْدَ تَفْكِيرٍ وَقَعَ الِاخْتِيَارُ عَلَى حَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ.

سَعِدَ حَبِيْبٌ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ، وَمَضَى إِلَى مَا أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَمَّا دَخَلَ أرضَ الْيَمَامَةِ لَمْ يَسْتَطِعْ مُقَابَلَةَ مُسَيْلِمَةَ، فَأَعْطَى الرِّسَالَةَ لِمَنْ يُوَصِّلُهَا لَهُ، وَبَقِيَ هُنَاك يَنْتَظِرُ الْجَوَابَ.

وَصَلَتِ الرِّسَالَةُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ، وَمَا إِنْ قَرَأَهَا حَتَّى صَارَ يُرْعِدُ وَيُزْبِدُ، وَأَمَرَ بِحَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ يُقَيَّدَ، وَأَنْ يُؤْتَى بِهِ إِلَيْهِ فِي الحَالِ.

أَحَبَّ مُسَيْلِمَةُ أَنْ يُقَلِّدَ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ أَتْبَاعَهُ وَأَنْصَارَهُ فِي سَاحَةٍ كَبِيرَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِحَبِيبٍ فَجِيءَ بِهِ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ حَبِيبٌ وَسطَ هَذِهِ الجموعِ مَشْدُودَ الْقَامَةِ، مَرْفُوعَ الْهَامَةِ، فَقَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ:

- أَتَشْهَدُ أَنَّ محمداً رَسُولُ اللَّهِ؟

فَقَالَ حَبِيبٌ:

- نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّ محمداً رَسُولُ اللَّهِ.

ثُمَّ قَالَ مُسَيْلِمَةُ:

- وهلْ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللّهِ؟.

فَرَدَّ حَبِيبٌ ساخراً: إنَّ فِي أُذُني صَمَماً عَنْ سَمَاعِ مَا تَقُولُ!!

غَضِبَ مُسَيْلِمَةُ وجُنَّ جُنُونَهُ وَقَالَ لِجَلَّادِهِ:

- اقْطَعْ قِطْعَةً مِنْ جَسَدِهِ، فَفَعَلَ.

ثُمَّ أَعَادَ مُسَيْلِمَةُ عَلَى حَبِيبِ السُّؤَالَ نَفْسَهُ:

- أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللّهِ؟

قَالَ حَبِيبٌ: والدَّمُ يَنْزِفُ مِنْ جَسَدِهِ، قُلْتُ لَك: إنَّ فِي أُذُنِي صَمَماً عَن سماعِ مَا تَقُولُ!!

فَأَمَرَ مُسيلِمَةُ بِأَنْ تُقْطَعَ مِنَ جَسَدِهِ قِطْعَةٌ أُخْرَى، وَمَضَى مُسَيْلِمَةُ يَسْأَلُ، والْجَلَّادُ يَقْطَعُ وحبيبٌ يُرَدِّدُ: أَشْهَدُ أَنْ محمداً رَسُولُ اللّهِ... حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهُ.

رضي اللّهُ عنْ حبيبٍ وَجَعَلَهُ مِنَ الشُّهداءِ الَّذينَ هُمْ أحياءٌ عنْدَ ربِّهِمْ يرزقونَ.

***

ذُو البِجادَيْنِ

الطَّالِبُ الهارِبُ

لَمْ يَرْضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ اَسْمِهِ لِأَنَّ فِيهِ رَائِحَةَ الشِّرْكِ، فَمَاذا كان اسْمُهُ وماذا صارَ؟!

كَانَ اسْمُهُ (عَبْدَ الْعُزَّى) فَغَيَّرَهُ رَسُولُ اللهِ إِلَى (عَبْدِ اللهِ).

فَمَنْ هُوَ ؟

ماتَ أبوه وَهُوَ صغيرٌ، ولم يورِّثْ لهُ شيئًا، نَشَأَ فِي حِجْرِ[1] عَمِّهِ الَّذِي ضمهُ إليهِ، وكَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهِ كَثِيرًا، وَيُحِبُّه، وَكَانَ عَبْدُ الْعُزَّى يبَادِلُهُ الْحُبَّ، وَيَحترمُهُ.. وَلَكِنَّ الْحُبَّ انقَلَبَ بين الغُلامِ وعمِّهِ إِلَى عَدَاوَةٍ وَبَغْضَاء!!

لماذا؟

عِنْدَمَا أَضَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَمَاءَ مَكَّةَ بِنُورِ الْإِسْلَامِ تَبِعَهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَيْرٌ.. رِجَالٌ وفِتيانٌ وَنِسَاءٌ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَقَفَ فِي طَرِيقِ النُّورِ والحقِّ أَعْدَادٌ غَفِيرَةٌ وَأَكْثَرُهُمْ مِن زُعَمَاءِ الْقَبَائِلِ، وَكَان عَمُّ عَبْدِ الْعُزَّى وَاحِدًا مِنْهُمْ، فكثيرًا ما كانَ الغلامُ الصغيرُ يسمعُ مِنْ عمِّهِ ما يُسيءُ لرسولِ الله وصحبهِ.

مرَّت الأيام والسنونَ والغلامُ الصغيرُ يزدادُ حبًا لرسولِ الله، ويهاجر المسلمون إلى يثربَ ويَلْحقُ بهمْ رسولُ الله، ويتوقُ الصغير للإسلامِ والمسلمينَ.

فحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يلحقَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ.. وَلَكِنْ مَاذَا يَفْعَلُ؟

إِنْ عَلِمَ عَمُّهُ بِذَلِكَ فَسَوْفَ يَغْضَبُ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا يَطْرُدُه مِنْ بَيْتِهِ، وَهُو فَتًى يافِعٌ لَا يَعْرِفُ مَأْوَى وَلَا يلْقَى مُسَاعَدَةً إِلَّا مِنْهُ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ كَرِيمٌ، وَيُحِبُّه وَلَا يَبْخَلُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، تمنى عبد العزى أنْ يلينَ قلبُ عمِّهِ ويدخلَ في الإسلامِ، كما

(١) الحجر : البيت والمكان

فعلَ بعضُ رجالِ مكَّةَ، ولكنْ أمنياتُهُ باءتْ بالإخفاقِ، فَهُوَ يسمع كلَّ يومٍ ما يسيءُ لمحمدٍ وصحابته في مجلسِ عمِّهِ! وبعدما يئسَ من ذلك ذهبَ إليه وقالَ:

يَا عَمُّ! إنِّي قَدِ انْتَظَرْتُ إسْلامَكَ فَلَا أَرَاك تُرِيدُ مُحَمَّدًا، فَائْذَنْ لِي فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: وَاللهِ لَئِنْ اتَّبَعْتَ مُحَمّدًا لَا أَتْرُكُ بِيَدِكَ شَيْئًا كُنْتُ أَعْطَيْتُكَ إِيَّاهُ إلَّا نَزَعْتُهُ مِنْكَ، حَتَّى ثَوْبَيْكَ.

فَمَاذَا كانَ جَوَابُهُ..؟!

قَالَ لَهُ: فَأَنَا وَاللهِ مُتَّبِعٌ مُحَمَّدًا وَتَارِكٌ عِبَادَةَ الْحَجَرِ، وَهَذَا مَا بِيَدِي فَخُذْهُ!!

إشْتَعَلَ عَمُّهُ غَيْظًا وَغَضَبًا، وَانْدَفَعَ نَحْوَ ابْنِ أَخِيْهِ يُجَرِّدُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَمْلِكُ حَتَّى مِنْ مَلَابِسَهِ الَّتِي يَرْتَدِيها ، وقال لهُ :

هذا هُوَ يَومُكَ الأخيرُ في بيتي عليكَ أن تخرجَ قبل أنْ أعودَ !

ويخرجُ العمُّ ويُهرَعُ الغلامُ إلَى أُمِّهِ وهو عريانٌ يُخْبِرُهَا بِمَا فَعَلَ عَمُّهُ، فَساءَها ما حَصَلَ، وأشفقَتْ علَى ابنِها الصَّغيرِ، فَقَطَعَتْ لَهُ بِجَادًا[1]، وجَعَلَتْهُ اثْنَيْنِ، فَاتَّزَرَ بِوَاحِدٍ، وَارْتَدَى الْآخَرَ، وغادرَ البَيْتَ مُسْرِعًا قبلَ أنْ يَصِلَ عَمُّهُ.

ويسلكُ طريقَ الحقِّ، وَيَقْطَعُ الْفَيَافِيَ، وتمرُّ عليهِ الأيامُ والليالي وهوَ في بجادِهِ العَتيقِ الذي ازدادَ بَلاءً .

وأخيرًا يصلُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَلْبُهُ مُتَشَوِّقٌ لِرُؤْيَة حَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى ﷺ، كَانَ قَدْ أَصَابَهُ الْإِعْيَاءُ وَالتَّعَبُ، فَاضْطَجَعَ فِي الْمَسْجِدِ إلَى السَّحَرِ.

(١) البجاد: قِطْعَةٌ مِنَ القُمَاشِ الخَشِنِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَصَفَّحُ النَّاسَ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الفجرِ فرأى شابًا عليهِ علاماتُ السَّفرِ والتَّعبِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ قِصَّتَهُ كلها، فسأله عنِ اسمهِ فقالَ: أنا عَبْدُ الْعُزَّى، فَقَالَ: (أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ ذُو البِجادَيْنِ)، ثُمَّ قَالَ: انزِلْ قَرِيبًا مِنِّي، فنزل ذو البِجادَيْنِ قُرْبَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَاقْتَرَبَ كثيراً مِنَ الرَّسُولِ حَتَّى قَرَأَ قُرْآنًا كَثِيرًا.

وَقَدْ كانَ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» صَيِّتاً بِالْقُرْآنِ[1]، فَكَانَ يَقُومُ فِي الْمَسْجِدِ فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْقِرَاءَةِ.

وذات يومٍ قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْمَعُ هَذَا الأَعْرَابِيَّ قَدْ مَنَعَ النَّاسَ الْقِرَاءَةَ!!؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعْهُ يَا عُمَرُ فَإِنَّهُ خَرَجَ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ!.

وَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ أَمَرَ الرَّسُولُ بِالاسْتِعْدادِ لِغَزْوِ الرُّومِ فِي تَبُوكَ، وَكَانَ ذَلِكَ الْعَامُ عَامَ عُسْرَةٍ، فَالْحَرُّ شَدِيدٌ، وَالْأَرْضُ قَفْرَاءُ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَجِدُوا مَا يَرْكَبُون عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ وَأَصْدِقَاؤُه البكَّاؤونَ السَّبْعَةُ[2].

بَعْدَ أَنْ يَئِسَ عَبْدُ اللهِ مِنَ الِاشْتِرَاكِ بالغزوة عادَ إلى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وصار يَبْكِي كأصدقائهِ، فرآهُ أَحَدُ الصَّحَابَةِ وَقَالَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ كَيْ أَذْهَبَ مَعَهُ فَلَمْ يَجِدْ لِي مَا يَحْمِلُنِي عَلَيْه، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يَحْمِلُنِي، فَأَشْفَقَ

(١) أيْ ذَا صَوتٍ حَسَنٍ.

(٢) لأن الرسول لما لم يجد ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، وذكرهم القرآن في الآية رقم (٩٢) من سورة التوبة، قال الله تعالى: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ).

عَلَيْه الصَّحَابِيُّ وَأَعْطَاه جَمَلًا وَزَوَّدَه بِجِرَابٍ[1] مِنَ التَّمْرِ، فَفَرِحَ الْفَتى الصَّغِيرُ وَرَكِبَ جَمَلَهُ وَلَحِقَ بِالرَّسُولِ وَصَحْبِهِ.

وَهُنَاكَ فِي تَبُوكَ، مَرِضَ عَبْدُ اللَّهِ بِالْحُمَّى وَاشْتَدَّ مَرَضُهُ، وَحَاوَلَ الْمُسْلِمُونَ عِلَاجَهُ، وَلَكِنَّ الْحُمَّى تَسْتَعِرُ وَيَنْتَقِلُ ذُو البِجادَيْنِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَيَحْزَنُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ويُسْرعونَ بتجهيزِهِ لِدَفْنِه، والرَّسُولُ يَقُولُ: (ارْفُقُوا بِهِ رَفَقَ اللَّهُ بِهِ، إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ).

وَفِي روايةٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قَبْرِ عَبْدِ اللَّهِ ذِي البِجادَيْنِ، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، يَقُولُ: (أَدْنِيا إِلَيَّ أَخَاكُمَا)، وَأَخَذَهُ مِنْ قِبَلِ الْقِبْلَةِ حَتَّى أَسْكَنَهُ فِي لَحْدِهِ، ثُمَّ خَرَجَ وَوَلِيَا هُمَا الْعَمَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دَفْنِهِ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةِ رَافِعًا يَدَيْهِ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ عَنْهُ رَاضِيًا فَارْضَ عَنْهُ)، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلًا، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي مَكَانَهُ، وَلَقَدْ أَسْلَمْتُ قَبْلَهُ ».

***

(١) الجراب : الكيس الكبير

رافِعُ بنُ خَدِيج

بطلُ الرِّمايةِ

كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَعْرِضُ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ بَدْءِ غَزْوَةِ بَدْر وفجأةً نَظَرَ إِلَى مُؤَخِّرَةِ الصُّفُوفِ، فَوَجَدَ غُلامًا يَافِعًا، يُحَاوِلُ أَنْ يَقِفَ عَلَى أَصَابِعِ قَدَمَيْهِ، حَتَّى تَطُولَ قَامَتُهُ!.

كَانَ رَافِعٌ مُتشوِّقًا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ أَيَّامٌ طَوِيلَةٌ، وَهُو مُوَاظِبٌ عَلَى الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ يَسْتَمِعُ إِلَى الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ، وَيَتَرَبَّى عَلَى الْمبَادِئِ وَالأَخْلَاقِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ ، فَعَرَفَ مِنْ ضِمْنِ مَا عَرَفَ أَهَمِّيَّةَ الْجِهَادِ، وَمَنْزِلَةَ الْمُجَاهِدِينَ وَالشَّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

عَادَ رَافِعٌ إِلَى بَيْتِهِ، وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ مَع الْمُجَاهِدِينَ؛ لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَهُ بِذَلِكَ لِصِغَرِ سِنِّهِ، عَادَ والدُّموعُ تَنْهَمِرُ عَلَى خَدَّيْهِ، وَهُوَ يَدْعُو لِلْمُجَاهِدِينَ بِالثَّبَات وَالنَّصْرِ. وَلَمَّا رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ مُنتصرِينَ فَرِحَ فَرحًا شديدًا، وخاصةً عِنْدَمَا عَلِمَ بِمَا فَعَلَهُ مُعَاذٌ وَمُعَوِّذٌ ابْنَا عفْرَاءَ «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ» ؛ بِأَبِي جَهْلٍ زَعِيمِ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ.

ظَلَّ يَتَرَقَّبُ فُرصةً لِيَنَالَ فِيهَا شَرَفَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَخِلَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ لَزِمَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَعَلَّمُ الأَحَادِيثَ الشَّرِيفَةَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، ويَتدرَّبُ عَلَى فُنُونِ الْقِتَالِ.

وَحَانَتِ الْفُرْصَةُ أخيرًا.. فَجَيشُ الْمُشْرِكِينَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ ، يَسْتَعِدُّ لِمُواجَهَتِهِمْ، وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَعِدُّونَ لِذَلِكَ، فَبَعْضُهُمْ يُجَهِّزُ أَسْلِحَتَهُ،

وَبَعْضُهُم يَقُومُ بالتَّدرِيبِ وَالْفُرُوسِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصُّوَرِ الرَّائِعَةِ الَّتِي تَمَيّزَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ التَّهَيُّؤِ لمقابَلَةِ الأَعْدَاءِ.

هُرِعَ رَافِعٌ مَعَ أَبِيهِ خَدِيجٍ؛ لِيأْخُذَا مَكانًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَمَا حَصَلَ فِي الْمَعْرَكَةِ الأُولَى، رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَرْجِعَ، فَمَا زَالَ صَغِيرًا.. وَلِذَلِكَ خَافَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ كَافِرٍ غَادِرٍ، يَنَالُ مِنْهُ طَعْنَةَ خِنْجَرٍ، أَوْ رَمْيَةَ سَهْمٍ، أَوْ ضَرْبَةَ سَيْفٍ.

سَمِعَ رَافِعٌ كَلَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَكِنَّهُ أَحبَّ أَنْ يشارِكَ فِي الْمَعْرَكَةِ.. فَمَاذَا فَعَل لِيَبْقَى مَعَ الْمُجَاهِدِينَ؟

ذَهَبَ « رَضِيَ اللهُ عَنْهُ » إِلَى مُقَدِّمَةِ الصُّفُوفِ، وَرَجَا وَالِدَهُ أَنَّ يُكَلِّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَأْنِهِ.. وَأَصَرَّ عَلَى ذَلِكَ!!

أَمْسَكَ خَدِيجٌ بِيَدِ ابْنِهِ رَافِعٍ، وَسَارَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ ابْنِي رافِعًا رامٍ حاذقٌ[1]، لِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ يَنْتَفِعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مَهارَتِهِ فِي الرَّمْيِ.

اِبْتَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَ بِدُخُولِهِ إِلَى الْمَعْرَكَةِ.

كَادَ رَافِعٌ أَنْ يَطِيرَ فَرحًا.. فَقَد تَحَقَّقَتْ أُمْنِيَّتُهُ الَّتِي طَالَمَا انْتَظَرهَا!! انْطَلَقَ بشجاعةٍ يَحْمِلُ جُعْبَتَهُ الْمَلأَى بِالسِّهَامِ عَلَى ظَهْرِهِ، وَجَثَا خَلْفَ صَخْرَةٍ صَلْدَةٍ، يُصَوِّبُ نِبَالَهُ نَحْوَ أَعْدَاءِ اللهِ، وَانْطَلَقَتْ كَالْمَطَرِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يُجَلْجِلُ بِالتَّكْبِيرِ.

(١) حاذق: مَاهِرٌ.

وَفِـي هَذِهِ اللَّحَظَـاتِ العَصِيبَـةِ؛ اسْتَدَارَ أَحَدُ الْـمُشْرِكِينَ باحِثًا عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أَثْخَنَ قَوْمَـهُ جِراحًـا، فَرَآهُ، فابتعَدَ قَلِيـلًا فِـي مُحَاوَلَـةٍ لِلتَّسَلُّلِ خَلْفَـهُ.. وَذُهِلَ الرَّجُلُ عِنْدَمَا رَأَى الرَّامِيَ الَّذِي لَا يَخِيبُ سَهْمُهُ غُلامًا يافعًا، فَأَعَدَّ قَوْسَـهُ، وَأَطْلَقَ سَهمًا نَحْوَ رَافِعٍ، فَأَصَابَـهُ إِصَابَـةً بَالِغـةً، وَلَكِنَّ البَطَلَ، لَمْ يَتَأَثَّرْ بِأَلَمٍ، وَلَمْ يُبَالِ بِمَا حَدَثَ، فَأَمْسَكَ السَّهْمَ بِيَدِهِ، وَنَزَعَـهُ مِنْ جِسْمِهِ، وَعَادَ يُقارِعُ الْـمُشْرِكِينَ، وَيُدَافِعُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَـى أَنْ أَثْخَنَتْـهُ الجِراحُ، فَطَلَـبَ مِنْـهُ الْـمُسْلِمُونَ أَنْ يَنْسَحِبَ إِلَـى مُؤَخِّرَةِ الْجَيْشِ، لِيُضَمِّدَ جِرَاحَـهُ.

وَفِـي نِهَايَـةِ الْـمَعْرَكَةِ حَزِنَ رَافِـعٌ مَـعَ الْـمُسْلِمِينَ؛ مِمَّـا أَصَابَهُم، وَتَبَدَّلَ حُزْنُـهُ فَرَحًـا عِنْدَمـا عَـادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَائِـلًا: **(أَنَـا أَشْـهَدُ لَـكَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ..)**، عِنْدَهَا شَعَرَ الغلامُ الصغيرُ كَأَنَّ جِسْمَهُ شُفِيَ مِنَ الألَمِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَنْهَضَ مِنْ فِرَاشِـهِ لَكِنَّـهُ لَـمْ يَسْتَطِعْ.

عَرَفَ رافـعٌ حَلَاوَةَ الْجِهَادِ، فَبَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْـهِ بِالشِّفَاءِ، لَمْ يَتْرُكْ غَزْوَةً أَوْ سَرِيَّةً إِلَّا واشْتَرَكَ فِيهَا.

رَضِـيَ اللهُ عنْكَ يا رافعُ! وهَنِيئًا لَكَ بِالشَّـهَادَتَيْنِ: شَهَادَةٍ نِلْتَهَا مِنْ فَمِ رَسُولِ اللهِﷺ ، وَشَهَادَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، تَحَقَّقَتْ لَكَ يَوْمَ تُوُفِّيتَ مُتَأَثِّرًا مِنْ جُرْحِكَ السَّابِقِ فِي سبيلِ اللهِ.

زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ

الْغُلَامُ الصَّادِقُ

هُوَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ الأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ، تَرَبَّى يتيمًا فِي كَنَفِ الصَّحَابِيِّ الْمَشْهُورِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ، وَنَهلَ مِنْ مَعِينِ الإِسْلَامِ.

كَانَ كَغَيْرِهِ مِنْ صِبْيَانِ الْمُسْلِمِينَ، يَتَشَوَّقُ لِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَالْتَحَقَ بِالْجَيْشِ طَالِبًا الشَّهَادَةَ أَوِ النَّصْرَ، لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَدَّهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ، فَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَجَاوَزَ الْعَاشِرَةَ بَعْدُ، وَكَذَا رَدَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، مِنْهُم: عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَآخَرُونَ.

وَلَكِنْ فُتِحَتْ لَهُ الطَّرِيقُ بَعْدَ ذلكَ، وَلَمْ تَفُتْهُ غَزْوَةٌ وَاحِدَةٌ، فَكَانَ يَقُولُ مُفتَخِرًا: (غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِسْعَ عَشْرَةَ غَزْوَةً، وغَزَوْتُ مِنْهَا مَعَهُ سَبْعَ عَشْرَةَ غَزْوَةً).

وَكَانَ أَوَّلَ غَزْوَةٍ يَغْزُوهَا زَيْدٌ هِيَ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلَقِ، فَفِي شَهْرِ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ، بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ سَيِّدَ بَنِي الْمُصْطَلَقِ يَجْمَعُ الْجُمُوعَ لِحَرْبِ الْمُسْلِمِينَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فِي جَمْعٍ مِنَ صحابتهِ فِيهِمْ زَيْدٌ، وَخَرَجَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ؛ يَرْجُونَ أَنْ يُصِيبُوا عَرَضَ الدُّنْيَا، وَانْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ بانتصَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَفِرَارِ الْمُشْرِكِينَ، وَكَشْفِ الْمُنَافِقِينَ.

أَمَّا صَاحِبُنَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، فَقَدْ كَانَ لَهُ دورٌ هامٌ؛ أَدَّى لِكَشْفِ الْمُنَافِقِينَ وَزَعِيمِهِم.. فَبَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَعْرَكَةِ اِخْتَصَمَ أَنْصَارِيٌّ ومُهاجِرِيٌّ عَلَى الْمَاءِ، فَصَرَخَ الأَنْصَارِيُّ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، وَصَرَخَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، فَأَقْبَلَ الرِّجَالُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ، لَوْلَا أَنْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ)، ثمّ سَوَّى الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، حَتَّى سَكَنَتِ الْفِتْنَةُ.

فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ أَمْرُ هَذَا الْخِصَامِ، غَضِبَ، وَكَانَ عِنْدَهُ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَيْنَهُم زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ مَذَلَّةً، أَوَ قَدْ فَعَلُوهَا؟! نَافَرُونَا فِي دِيَارِنَا، وَاللهِ مَا مَثَلُنَا وَجَلَابِيبَ قُرَيْشٍ[1] هَذِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَسَمِعَهَا الْغُلَامُ الصَّغِيرُ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، وَفَكَّرَ: مَاذَا يَفْعَلُ؟!

هَلْ يَذْهَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيُخْبِرُهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، أَوْ يَسْكُتُ عَلَى هَذَا الْمُنَافِقِ؟.. إِحْتَارَ الْغُلَامُ فِي الْأَمْرِ.. ثُمَّ قَرَّرَ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِ قُرآنٌ لِتَسَتُّرِهِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ.

كَانَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ «رضي الله عنه» فَعِنْدَمَا تَكَلَّمَ زَيْدٌ بِالْأَمْرِ، اقْتَرَحَ عُمَرُ ضَرْبَ عُنُقِ الْمُنَافِقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ.. وَسُرْعَانَ مَا انْتَشَرَ الخَبَرُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فهاجُوا، وماجُوا، فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ذَلِكَ؛ أَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعَلَ يَحْلِفُ بِاللهِ مَا قَالَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ، فَقَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ قَدْ أَوْهَمَ، وَلَمْ يُثْبِتْ!!

وَرَاحَ نَفَرٌ مِنَ الْقَوْمِ، يَلُومُونَ الْغُلَامَ الصَّغِيرَ وِيُقَرِّعُونَهُ، وَبَعْضُهُم صَارَ يَشُكُّ فِي صِدْقِهِ، فَأَصَابَ الْغُلَامَ هَمٌّ وغَمٌّ، فَاعْتَزَلَ قَوْمَهُ، وَابْتَعَدَ عَنْ مَجَالِسِهِم حَزِينًا كَئِيبًا، وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ صَدَّقَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ وَكَذَّبَهُ.

كَمْ كَانَتِ الْحَالَةُ مُرْبِكَةً! وَكَم كَانَ أَثَرُهَا بَالِغًا فِي الْمُسْلِمِينَ!.. رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَدْرِي مَنْ يُصَدِّقُ: الْغُلَامَ الَّذِي يَغْزُو مَعَهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَم زَعِيمَ الْخَزْرَجِ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ!؟ مَاذَا يَفْعَلُ!؟

(١) جلابيب قريش : المهاجرون القرشيون .

إِنْتَشَرَ الخَبَرُ فِي القَوْمِ انْتِشَارَ النَّارِ فِي الهَشِيمِ، وَانْقَسَمَ الْمُسْلِمُونَ مرةً أُخْرَى بَيْنَ مُصَدِّقٍ هَذَا أَوْ ذَاكَ..

أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ قَوْمَهُ بِالرَّحِيلِ فِي وَقْتِ هَجِيرِ الشَّمْسِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدِ اعْتَادَ عَلَى السَّيْرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فأمرَ عُمَرَ أَنَّ يُنَادِيَ القَوْمَ بِالرَّحِيلِ؛ حَتَّى يَشْغَلَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ.

سَارَ بِهِمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، حَتَّى ضُحَى الْيَوْمِ الثَّانِي، عِنْدَهَا وَصَلَ الْقَوْمُ مُتعَبِينَ؛ فَأَخْلَدُوا إِلَى النَّومِ.

إِحْتَارَ زيدٌ مَاذَا يَفْعَلُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ!؟ غَلَبَهُ النُّعَاسُ كَبَقِيَّةِ النَّاسِ، وَاسْتَسْلَمَ لِلنَّوْمِ.

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَقْبِلُ خَبَرَ السَّمَاءِ، حَيْثُ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِسُورَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَنَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الْمُنَافِقُونَ: ٨).

عِنْدَهَا اسْتَدْعَى النَّبِيُّ ﷺ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ.. فتَسابَقَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، أَيُّهُمَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ بِالبُشرَى.. فَسَبَقَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) وَبَشَّرَهُ، وَأَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ، وَأَمْسَكَ بِأُذُنِهِ، وَقَال: (وَفَتْ أُذُنُكَ، يَا غُلَامُ، إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ).

فَرِحَ الْغُلَامُ فَرحًا شَديدًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ بَرَّأَهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَكَشَفَ نِفَاقَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ الَّذِي تَجَرَّأَ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ، وَقَالَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ!.

أَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فَجَعَلَ يَتَوَارَى مِنَ الْفَضِيحَةِ فِي ثَوْبِهِ خَجِلًا.. وَقَدِمَ ابْنُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْلِنُ اسْتِعْدَادَهُ لِقَتْلِ أَبِيهِ الْمُنَافِقِ، إِنْ أَمَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، وَبَيَّنَ سَبَبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ غَيْرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَخَافَةَ أَنْ يُغرِيَهُ الشَّيْطَانُ يَومًا مَا، بِقَتْلِ قَاتِلِ أَبِيهِ ثَأرًا؛ فَيَدْخُلَ النَّارَ لِقَتْلِهِ مُؤمِنًا بِكَافِرٍ!.

تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: (بَل نَرْفُقُ بِهِ، ونُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا).

وَعِنْدَ مَشارِفِ الْمَدِينَةِ يَقِفُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ شاهِرًا سَيفَهُ.. وَيَمُرُّ وَالِدُهُ، ويُحاوِلُ دُخُولَ الْمَدِينَةِ.. فَيَعْتَرِضُهُ ابْنُهُ، وَيَرْفَعُ السَّيْفَ فِي وَجْهِهِ مُهَدِّدًا..

يَتَعَجَّبُ زَعِيمُ الْمُنَافِقِينَ مِنَ هَذَا الْمَوْقِفِ مِنِ ابْنِهِ الَّذِي كَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأَبِيهِ فِي الْمَدِينَةِ، فيُخَاطِبُهُ قَائِلًا لَهُ: مَالَكَ وَيْلَكَ؟!!

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ الْمَدِينَةَ، حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَهُوَ الْأَعَزُّ، وَأَنْتَ الأَذَلُّ!.

وَيَصِلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَرَى عَبْدَ اللَّهِ قَدْ حَبَسَ أَبَاهُ، وَيَعْرِفُ الْقِصَّةَ؛ فَيَأْذَنُ لِزَعِيمِ الْمُنَافِقِينَ بِدُخُولِ الْمَدِينَةِ.

أَمَّا الْغُلَامُ زَيْدٌ فَقَدْ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ كُلَّ الْغَزَوَاتِ، وَرَوَى عَنْ حَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى كَثِيرًا مِنَ الْأَحَادِيثِ، وَعَدَّهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ خَاصَّةِ الصَّحَابَةِ.. وَظَلَّتْ آيَاتُ اللَّهِ تُتْلَى مُعلِنَةً بَرَاءَةَ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، وَسَتَظَلُّ تُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!.

***

زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ

مِنَ البادِيَةِ إلى مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ

كَانَ زَيْدٌ عِنْدَمَا قُتِلَ وَالِدُهُ فِي يومِ « بُعَاثَ »[1] لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّادِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ هجرةِ الرَّسُولِ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ، عَاشَ يتيمًا فقيرًا بائسًا يَرْعَى الْغَنَمَ، غَيْرَ أَنَّهُ بالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِهِ كَانَ يُجَالِسُ كِبَارَ الْقَوْمِ مِنْ قَبِيلَتِهِ، وَيَحْفَظُ مِنْهُمُ الْحِكَمَ وَالسِّيَرَ[2] فَوَجَدُوا فِيهِ قُدْرَةً عَلَى الْحِفْظِ السَّرِيعِ، وَاسْتِيعَابِ الْعُلُومِ، فأكْبَرُوا فِيهِ ذَلِكَ.

ظَلَّ زَيْدٌ يَنْهَلُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ حَتَّى أَصْبَحَ عُمُرُهُ أحدَ عشرَ عامًا يَوْمَ سَمِعَ بِقُدُومِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ يُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ..

هُرِعَ زَيْدٌ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ليستمِعُوا إِلَى آيَاتِ اللهِ بِأَرْوَاحِهِم وَقُلُوبِهِم.. وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّى شَعَرَ زَيْدٌ بِنَشْوةٍ غَمَرَتْ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ وَعَى مِنْ خِلَالِهَا مَا قَرَأَهُ مصعبٌ، وَصَارَ يَحْفَظُ كُلَّ مَا يَسْمَعُهُ مِنَ الآيَاتِ الْكَرِيمَةِ.

صَارَ زَيْدٌ يَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ قُدُومَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ وَصَلَتْ إِلَيْهَا أَخْبَارُ خُرُوجِهِ مَعَ صَاحِبِهِ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرَيْنِ إِلَى يَثْرِبَ.

وَبَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ شَغَلَ بَالَ زَيْدٍ كثيرًا، وَصَل سَيِّدُ الأَنَامِ مَعَ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ (رضي الله عنه) إِلَى الْمَدِينَةِ، وَانْطَلَقَ زَيْدٌ مَعَ أَصْحابِهِ إِلَى مَشَارِفِها قُرْبَ قُبَاءَ مردِّدًا مَعَهُم:

(١) يوم بعاث: آخر المعرك بين الأوس والخزرج في يثرب.

(٢) السير: قصص المشهورين.

طلـــعَ البَدْرُ عَلَيْنَا... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا... مـا دَعَا لِلَّهِ دَاعْ

وَذَاتَ يَوْمٍ، وَبَيْنَمَا كَانَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَتَحَلَّقُون حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ تَقَدَّمَ زَيْدٌ لِيُصافحَ رَسُولَ اللَّهِ.. وَقَد أُعْجِبَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، ثُمَّ ازْدَادَ إِعْجَابُهُ بِهِ لَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ زَيْدٌ سَبْعَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى!!

بَعْدَ ذَلِكَ صَارَ زَيْدٌ مُلازِمًا لِمَجَالِسِ الرَّسُولِ ﷺ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، وَيَتَعَلَّمُ الْفِقْهَ والأحكامَ.

وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ كَانَ زَيْدٌ قَدْ حَفِظَ كُلَّ مَا أُنْزِلَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، حتَّى غَدَا مِنْ أَشْهَرِ الْقُرَّاءِ بالرَّغمِ من صِغَرِهِ!.

وَجَاءَ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَرَأَى زَيْدٌ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ تَتَهَيَّأُ لِلْخُرُوجِ كَي تُقَاتِلَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنِ امْتَشَقَ سيفَهُ وَرَاحَ فِي مُؤَخِّرَةِ الصُّفُوف يَمْشِي مَعَ الْمُجَاهِدِينَ فِي ثُلَّةٍ مِنْ أَقْرَانِهِ[1] مِنْ بَيْنِهِمْ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، وَكُلُّهُمْ فِي شَوْقٍ إِلَى الْجِهَادِ.

ولَمَحَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَوْقَفَهُمْ، وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ لِصِغَرِ سِنِّهِمْ فَرَدَّهُمْ، وَشَعَرَ زَيْدٌ كَمَا شَعَرَ أَصْحَابُهُ الصِّغَارُ بِحُزْنٍ شديدٍ.

(١) اقرانه: في مثل عمره.

وَتَمْضِي الأَيَّامُ وَيَكْبَرُ زَيْدٌ وَيَكْبَرُ مَعَهُ عَقْلُهُ الَّذِي حَفِظَ وَوَعَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَتَكْبَرُ شَجَاعَتُهُ أيضًا.. هَذِه الشَّجَاعَةُ الَّتِي اسْتَمَدَّها مِنْ مَعْنَى الإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ الكريمِ.

وَمَا زَالَ زَيْدٌ يَسِيرُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ حَتَّى سَمِعَ كَمَا سَمِعَ غَيْرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحُشُودِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ جبلِ أُحُدٍ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَحَاوَلَ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ يَنَالَ شَرَفَ الْقِتَالِ مَعَ أَقْرَانِهِ السَّابِقِينَ، وَانْضَمَّ إِلَى صُفُوفِ الْمُقاتلينَ، وَكَانَ معهُ رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ وعددٌ من صِغارِ الصَّحَابَةِ، فَتَوَسَّلَ والدُ رافعٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بقَبُولِ ابْنِهِ، فَقَبِلَ رافعًا فَقَطْ، وَلَمَّا أَمَرَ الْبَاقِينَ بِالرُّجُوعِ تَحَدَّى سَمُرَةُ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ وصارعَهُ أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لِيُرِيَهُ أَنَّهُ الأَقْوَى والأَقْدرُ عَلَى الْقِتَالِ، فَصَرَعَه فَقَبِلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في الانْضِمَامِ لِلْجَيْشِ.

فَرِحَ زَيْدٌ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَسْمَحُ لَهُ أيضًا، وَسُرْعانَ مَا تَبَدَّلَ فَرَحُهُ حزنًا عِنْدَمَا أَمَرَهُ بِالْبَقَاءِ مَع زُمَلائِه فِي الْمَدِينَةِ انْتِظارًا لَمعركةٍ قادِمَةٍ.

انْتَهَتْ غزوةُ أُحُدٍ.. وَكَم تَمَنَّى زَيْدٌ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُقاتلينَ، أَوْ حَتَّى بَيْنَ الشُّهَدَاءِ..!!

وَتَمُرُّ الأَيَّامُ وَتَمْضِي سَنَتَانِ، وَزَيْدٌ يَزْدَادُ حِفْظًا لِلْقُرْآنِ، وعِلْمًا فِي الدِّينِ.. وَصَارَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ، وَجَاءَتِ الأَخْبَارُ تَحمِلُ نَبَأَ قُدُومِ الأَحْزَابِ الْمُشْركينَ لِلْمَدِينَةِ لِاسْتِئْصَالِ الْمُسْلِمِينَ.

كَانَ زَيْدٌ قَدْ تَجَاوَزَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَكَانَ مُتَيَقِّنًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيُتِيحُ لَهُ الفُرْصَةَ لِيَشْتَرِكَ فِي الْقِتَالِ هَذِهِ الْمَرَّةَ..

الْجُيُوشُ الْجَرَّارَةُ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، اجْتَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ لِمُشَاوَرتِهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ، فَأَشَارَ سَلْمَانُ (رضي الله عنه) بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَاسْتَجَابَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِتَنْفِيذِ رَأْيِ سَلْمَانَ، وَكَانَ زَيْدٌ يَحْمِلُ التُّرَابَ وَيَنْقُلُهُ مِنَ الْخَنْدَقِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَفَرِحَ بِإِقْدَامِهِ، فَوَهَبَهُ وِسَامًا وَسَطَّرَهُ لَهُ عَلَى جَبِينِ التَّارِيخِ عِنْدَمَا قَالَ: (أَمَا إِنَّهُ نِعْمَ الْغُلَامُ).

وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ بِهَزِيمَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَإِعْزَازِ اللهِ لِدِينِهِ وَنَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى حياتهم الطبيعيةِ وَمَلؤوا مَسَاجِدَهُمْ لِلصَّلَاةِ وَالْعِلْمِ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ زَيْدٌ الَّذِي صَارَ مِن الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يُشَار إِلَيْهِم بِالْبَنَانِ[1].

وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ وَزَيْدٌ يَنْهَلُ مِنْ مَعِينِ الْحِكْمَةِ حَتَّى اخْتَارَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَكُونَ مِنْ كُتَّابِ الْوَحْيِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَبَعْدَ أَنْ رَأَى نبوغَهُ وَوَلَعَهُ بِالْعِلْمِ؛ وَلِأَنَّ رَسُولَ اللهِ تَأْتِيهِ الْكُتُبُ بِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ السِّرْيَانِيَّةَ فَاسْتَجَابَ زَيْدٌ وانكَبَّ عَلَيْهَا يَتَعَلَّمُهَا حَتَّى وَعَاهَا فِي سَبْعَةَ عَشَرَ يومًا، وَصارَ يَقْرَأُ لَهُ الْكُتُبَ الَّتِي تَأْتِيهِ مِنَ الْمُلُوكِ والزُّعَمَاءِ فِي ذَلِكَ الزَّمنِ.

وَكَانَ قَدْ طَلَبَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ العِبْرِيَّةَ لِلْغَرَضِ نَفْسِهِ، فتعلَّمَهَا زَيْدٌ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا فَبَرَعَ فِيهَا، فَكَانَ يَكْتُبُ إِلى الْيَهُودِ، وَإِذَا جَاءَ كِتَابٌ مِنْهُمْ قَرَأَهُ لِلرَّسُولِ ﷺ .

وَغَدَا زَيْدٌ مِنْ أَكْبَرِ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ عِنْدَمَا قَالَ: (أَفْرَضُ[2] أُمَّتِي زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ)، وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَقُولُون: (غلبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ النَّاسَ عَلَى اثْنَتَيْنِ: الْقُرْآنِ وَالْفَرَائِضِ).

(١) بالبنان: بالأصابع، دليل على الأهمية.

(٢) أفرضُ: أكثرهم فقهًا بعلم المواريث، وهو المال الذي يتركه الميت لورثته.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: (كَانَ إِمَامَ النَّاسِ عِنْدَنَا بَعْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؛ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَكَانَ إِمَامَ النَّاسِ بَعْدَهُ عِنْدَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ).

وَلَمْ يَتْرُكْ زَيْدٌ طِيلَةَ حَيَاتِهِ الْمُشَارَكَةَ فِي الْجِهَادِ، وَاشْتَرَكَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانَتْ رَايَةُ قَوْمِهِ مَعَ عُمَارَةَ بْنِ حِزَامٍ، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَدَفَعَهَا إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَقَالَ عُمَارَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَبَلَغَكَ عَنِّي شَيْءٌ؟ قَال: (لا، وَلَكِنِ الْقُرْآنُ مُقَدَّمٌ، وَزَيْدٌ أَكْثَرُ مِنْكَ أخذًا لِلْقُرْآنِ).

وَفِي مَعْرَكَةِ الْيَمَامَةِ اسْتُشْهِدَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ بَيْنَهُم عددٌ كبيرٌ مِنَ حَفَظَةِ الْقُرْآنِ، فَخَشِيَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ ذَلِكَ؛ فَشاورَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وكِبارَ صحابَتهِ، ثمَّ اسْتَدْعَى زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ عَلَى عَجَلٍ، وَأَمَرَهُ بِكِتَابَةِ الْمُصْحَفِ، فقَامَ زَيْدٌ بِتَنْفِيذِ هَذِهِ الْمُهِمَّةِ خَيْرَ قِيَامٍ.

وَفِي عَهْدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وبأمرٍ مِنْهُ قَامَ زَيْدٌ بِجَمْعِ الْمَصَاحِفِ عَلَى قِرَاءَةِ قُرَيْشٍ.

مَاتَ زَيْدٌ وَحَزِنَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ (رضي الله عنهم)، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَوْمَهَا: ماتَ حَبْرُ[1] هَذِهِ الأُمَّةِ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ فِي ابْنِ عَبَّاسٍ خَلَفًا).

وَرَثَاهُ حَسَّانُ بِقَوْلِهِ:

فَمَنْ لِلقَوافِي[2] بَعدَ حَسّانَ وَابنِهِ   وَمَن لِلمَثاني[3] بَعدَ زَيدِ بنِ ثابِتِ

(١) الحبر: كثير العلم.

(٢) القوافي : الشعر إذ كان حسان بن ثابت شاعر الرسول.

(٣) المثاني : الأخلاق الفاضلة

سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ

التِّلْمِيذُ الكَرِيمُ جِدًّا

وُلِدَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ فِي السَّنَةِ الأُولَى لِلْهِجْرَةِ، ونَشَأَ فِي بَيْتِ والِدِهِ الْعَاصِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ، أُمُّهُ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدالله بْنِ أَبِي قَيْسٍ.

قُتِلَ أَبُوهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ كافرًا عَلَى يَدِ الْفَتَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَرَجَعَ الْجَيْشُ الْمَهزومُ يَجُرُّ أَثْوَابَ الْخُذلانِ، وَلَكِنَّ الْعَاصَ لَمْ يَرْجِعْ، فَتَرَبَّى سَعِيدٌ يَتِيمًا مَعَ أُمِّهِ أُمِّ كُلْثُومِ الْعَامِرِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنِ الْيَتِيمُ الصَّغِيرُ قَدْ تَجَاوَزَ السَّنَتَيْنِ وَبِضْعَةَ أَشْهرٍ.

وَيَبْقَى سَعِيدٌ فِي مكةَ، وَيَتَرعْرعُ هُنَاكَ، وَيَبْدُو أَنَّهُ أَخَذَ مِنْ مَكَارِمِ الْعَرَبِ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ وَنَبَذَ[1] مَا يَكْرَهُهُ عُقَلاءُ النَّاسِ.

وَجَاءَتِ السَّنَةُ الثامِنَةُ مِنَ الْهِجْرَةِ وَانطَلَقَ جَيْشُ الْفَتْحِ، وَيَدْخُلُ الرَّسُولُ ﷺإِلَى مَكَّةَ الْمُكرَّمةِ، وَيَحْمِلُ عَصَاهُ، وَيَقْرَعُ بِهَا الأَصْنَامَ، وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى :﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء :٨١).

تحلَّقَ الْعَرَبُ مِنْ قُرَيْشٍ حَوْلَ الكَعْبَةِ خَائِفِينَ لَا يَعْرِفُونَ مَاذَا سَيَحُلُّ بِهِم، لَقَدْ فَعَلُوا الأَفَاعِيلَ بالرَّسُولِ والْمُسلِمِينَ، نكَّلُوا بِهِمْ، وعذَّبوهُمْ، وطَرَدُوهُمْ من دِيَارِهِمْ بغيرِ حقٍّ، وهاهُمْ يَنْتَظِرونَ مَصِيرَهُمْ!!.

وَيَقْتَرِبُ رَسُولُ اللهِ مِنْهُمْ قَائِلًا: « مَاذَا تَظُنُّون أَنِّي فَاعِلٌ بِكُم. »

فَيَقُولُونَ: أَخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ.

(١) نبذ: ترك.

يَقُولُ رَسُولُ الرَّحْمَةِ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.

فَيَفْرَحُون فَرَحًا شَدِيدًا، وَيَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أفواجًا رِجَالًا، ونساءً وصبيانًا، ويُهْرَعُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَيَقُولُ:

- أَشْهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ محمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

ويَعْجَبُ الرَّسُولُ مِنْ هَذَا الْغُلَامِ الصَّغِيرِ الْجَرِيءِ، وَيَدْعُو لَهُ.

بَدَأَتْ حَيَاةُ سَعِيدٍ تَتَغَيَّرُ نَحْوَ الْأَفْضَلِ، فَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلَامَاتٌ قَلَّمَا نَجِدُهَا فِي غُلامٍ بِمِثْلِ سنِّهِ، وَامْتَاز بِأفعالٍ لَا يَفْعَلُهَا إِلَّا الرِّجَالُ، وبصفاتٍ لا يتحلَّى بِهَا إلا كِرامُ النَّاسِ، لَا سِيَّمَا صِفَةُ الْكَرَمِ، فَقَدْ كَانَ كَرِيمًا مَعَ أَصْدِقَائِهِ لَا يُبَالِي بِمَا يَشْتَرِيهِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ يُقَدِّمُهُ لَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُناسَبَاتِ.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ وُصُولِ الناسِ إلى الْمَسْجِدِ الحرامِ لِمُبَايَعَةِ الرَّسُولِ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ فَسَلَّمَتْ عَلَى الرَّسُولِ، تَحْمِلُ فِي يَدِهَا بُرْدًا[1] ثَمِينًا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَوَيْتُ أَنْ أُعْطِيَ هَذَا الثوبَ لأَكْرَمِ الْعَرَبِ.

تَابَعَ الصَّحَابَةُ رسولَ اللهَ. وسعيدٌ منهُمْ. وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيهم، وَقَد حَبَسَ الْجَمِيعُ أَنْفَاسَهُمْ، وكلٌّ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَكُونَ هُوَ مَنْ يبحَثُ عنهُ رَسُولُ اللهِ، مَازَالَ رَسُولُ اللهِ يَنْظُرُ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَةِ: « أَعْطِيهِ هَذَا الْغُلَامَ »، يَقْصِدُ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَكَانَ سَعِيدٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يتجاوزِ التاسِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ، وَأَكرِمْ بها من شهادَةٍ عظيمَةٍ! شَهَادَةُ النَّبِيِّ أرْفَعُ وِسامٍ نَالَهُ غُلَامٌ فِي ذَلِكَ الْحِينِ.

(١) البرد: العباءة.

هَنِيئًا لَكَ يَا سَعِيدُ، لَقَد نِلْتَ شَهَادَةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَالرَّسُولُ لَمْ يَشْهَدْ بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ بِهِ.. لَقَد تَحَقَّقَ إِخْبَارُ الرَّسُولِ عنْ هَذَا الْغُلَامِ.

أحبَّ سعيدٌ الرَّسُولَ، وَمِنْ شِدَّةِ حبِّهِ لَهُ رافقَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَهُنَاكَ تَابَعَ تَعْلِيمَهُ فِي مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ، تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَالْحَدِيثَ الشَّرِيفَ، وَتفقَّهَ فِي الدِّينِ، وَعَرَفَ الشَّجَاعَةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالْبَلَاغَةَ، إِلَّا أَنْ أَكْثَرَ شَيْءٍ اشْتُهِرَ بِهِ هِيَ الصِّفَةُ الَّتِي لَازَمَتْهُ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَهُوَ كَرِيمٌ كَرِيمٌ، وكيفَ لا يكونُ كريمًا وقد شهدَ له رسولُ الله بذلك يوم فتحِ مكةَ !؟.

لَمْ تَسْعَدْ عَيْنَا سعيدٍ كثيرًا بِرُؤْيَةِ الرَّسُولِ، فَقَدْ فاضَتْ روحُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ لبارئِها، وَسَعِيدٌ فِي الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، حَزِنَ عَلَيْهِ كثيرًا، وَلَكِنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ تَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ صَابِرِينَ محتسبينَ[1].

أَدْنَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ مَجْلِسِهِ لِمَا عُرِفَ عنْهُ مِنْ صِفَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ فِي مَجْلِسِ أميرِ الْمُؤمنينَ مَع كِبَارِ الصَّحَابَةِ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ يَتَذَاكَرُونَ أَيَّامَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَعَلَّ أَحَدَ الصَّحَابَةِ ظَنَّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ هُوَ الَّذِي قَتَلَ وَالِدَهُ الْعَاصَ، فَقَالَ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَتَلَ أَبَاكَ العاصَ!!

أحبَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يجلُوَ الْمَوْقِفَ فَقَالَ: يَا سَعِيدُ أنا لَمْ أَقتُلْ أَبَاكَ، أَنَا قَتَلْتُ خَالِي الْعَاصَ بْنَ هِشَامٍ.. وَأَمَّا الَّذِي قَتَلَ وَالِدَكَ الْعَاصَ بْنَ سَعِيدٍ فَهُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!.

---

(١) المحتسب: من يحتسب أجره عند الله، ويقول: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وَلَو رَأَيْتُهُ يَا سَعِيدُ قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ عليٌ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لقتلتُهُ!

عِنْدَهَا قَالَ سَعِيدٌ: وَلَوْ قَتَلْتَهُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَلَيْسَ الأَمْرُ يُزْعِجُنِي، فَأَنْتَ عَلَى حَقٍّ، وَأَبِي كَانَ عَلَى الْبَاطِلِ.

كَبِرَ الغُلامُ، وكبِرَتْ مَعَه مَعَانِي الرُّجُولَةِ وَالشَّجَاعَةِ، فَكَانَ واحدًا مِنَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي فُتُوحِ الشَّامِ، فَأَرْسَلَهُ هُنَاكَ فَأَبْلَى بَلَاءً حَسَنًا، وَأَظْهَرَ قُوَّةَ الإِيمَانِ، وحماسةً شديدةً لِلدِّفَاعِ عَنِ الإِسْلَامِ.

كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ مِنْ فُصَحَاءِ قُرَيْشٍ، وَلِهَذَا نَدَبَه[1] عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فِيمَن نَدَبَ لِكِتَابَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ عَرَبِيَّةَ الْقُرْآنِ أُقِيمَتْ عَلَى لِسَانِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ لِأَنَّهُ كَانَ أَشْبَهَهُمْ لَهْجَةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

اسْتَمَرَّ سَعِيدٌ سِيرَتَهُ فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ، بَلْ صَارَ سَخِيًّا لَا يَرُدُّ سَائِلًا، وَكَان إذا سأَلَهُ سَائِلٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُعْطِيهِ يَطْلُبُ قِرطاسًا[2]، وقلَمًا وَيَكْتُبُ لَهُ قِيمَةَ مَا يَسْتَحِقُّهُ وَيقُولُ لهُ: هَذِهِ بذِمَّتِنا، ارْجِعْ إِلَيْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَان الْمُحْتَاجُون يَرْجِعُونَ عندَما يَعْلَمُونَ أَنَّ سعيدًا قَدْ جَاءَهُ مَالٌ، فَيُسَلِّمُون الْقِرْطَاسَ، ويستلِمُونَ الْمَالَ.

وَاسْتَمَرَّ الْجُودُ وَالإِنْفَاقُ وَالشَّجَاعَةُ معَ سعيدٍ حَتَّى لَقِيَ رَبَّهُ راضيًا مَرْضِيًّا سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ دَفْنُهُ بِالْبَقِيعِ نَادَى

---

(١)ندبه: اختاره.

(٢) القرطاس: قطعة من ورقة، وما كان يفعله سعيد هو « الشيك » المؤجل بلغة اليوم.

أَوْلَادُه: مَنْ لَهُ دَيْنٌ عَلَى أَبِينَا فَلْيَأْتِنَا!.. فَحَضَرَ مَنْ كَانَ سَعِيدٌ كَتَبَ لَهُ قِرْطَاسًا بِذَلِكَ، وَهُمْ كُثُرٌ وَقَدْ بَلَغَتْ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وفَّاها أولادُهُ عنهُ.

***

سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ

بطلُ المُصارعةِ

قَدِمَتْ أمُّ سَمُرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَعَ طِفْلِهَا الصَّغِيرِ سَمُرَةَ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ زَوْجَهَا (جُنْدُبًا)، حَتَّى تَكُونَ قريبةً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِتَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَتَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ.

كَانَتْ أُمُّ سَمُرَةَ عَلَى قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَدَبِ؛ فَأَحَبَّهَا جِيرَانُهَا، وأكْرمُوها خَيْرَ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَجِيرَانِهِ.

وَلَمَّا عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِمَكَانَتِهَا تَقَدَّمَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَخَافُ عَلَى صَغِيرِهَا مِن زوجٍ قاسٍ لَا يُحْسِنُ مُعَامَلَتَهُ، فَتَرَدَّدَتْ كثيراً.. وأخيراً وَافَقَتْ عَلَى شَرْطِ أَنْ يُحْسِنَ الزَّوْجُ الْمُتَقَدِّمُ مُعَامَلَةَ سَمُرَةَ، وَيَعْطِفَ عَلَيْهِ ويَتَكَفَّلَهُ.

وَاسْتَجَابَ لِهَذَا الطَّلَبِ أَحَدُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ، فَتَزَوَّجَهَا، وَأَحْسَنَ مُعامَلَتَها وَمُعَامَلَةَ صَغِيرِهَا الْحَبِيبِ الَّذِي اهْتَمَّ بِهِ اهتماماً كبيراً؛ فَصَار يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَيُرَبِّيهِ عَلَى تَعالِيمِ الْإِسْلَامِ، وَكَبِرَ سَمُرَةُ، وَكَبِرَتْ مَعَهُ الْقِيَمُ والْمَبادِئُ، وَأَخَذَ يَحْفَظُ السُّوَرَ الْكَثِيرَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ؛ لِأَنَّه كثيراً مَا كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَى مَجَالِسِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ.

وَكَانَ يَقُولُ: كُنْتُ أَحْفَظُ كثيراً مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَكِنَّنِي لَا أُحَدِّثُ النَّاسَ بِهَا لِوُجُودِ رِجالٍ هُم أَسَنُّ[1] مِنِّي، فَيَقُولُونَ: غُلامٌ صَغيرٌ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ!.

وَعِنْدَمَا جَاءَتِ الْأَخْبَارُ بِأَنَّ قُرَيْشًا فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ؛ تُرِيدُ أَنْ تَثأَرَ لِقَتلاها فِي بَدْرٍ، هُرِعَ الْمُسْلِمُونَ يَتَسَابقُونَ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ

(١) أسنّ: أكبر سناً.

بَيْنَهُم جَماعَةٌ مِنَ الصِّبْيَانِ فِي عُمْرِ الزُّهُورِ، أَحَبُّوا أَن يَنَالُوا شَرَفَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَان بَيْنَهُم سَمُرَةُ، وَعِنْدَمَا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ.

حَزِنَ سَمُرَةُ كثيراً لِذَلِكَ، وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ.. وَبَيْنَمَا كَانَ يَتَهَيَّأُ لِلعودةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، سَمِعَ أَبَا رَافِعٍ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ، يَتَشَفَّعُ لِابْنِهِ رَافِعٍ لِلْمُشَارَكَةِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَهُوَ يَقُولُ لِلرَّسُولِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ابْنِي رافِعًا رامٍ حاذِقٌ، لِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ يَنْتَفِعَ الْمُسْلِمُونَ بِمهَارَتِهِ فِي الرَّمْيِ، فَوَافَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ بِدُخُولِهِ الْمُعْرَكَةَ، فكَّرَ سَمُرَةُ وفكَّرَ مَاذَا يَفْعَلُ؟

لِمَاذَا يَشْتَرِكُ رَافِعٌ وَهُوَ لَا؟ مَعَ أَنَّ رافِعًا فِي عُمْرِهِ.. تَقَدَّمَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ فِي جُرْأَةٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَجَزْتَ رافِعًا وشَرَّفْتَهُ، لِيَدْخَلَ الْمَعْرَكَةَ، وردَدْتَنِي.. وَلَو سَمَحْتَ لِي بِالْمُصَارعَةِ لَصَرَعْتُهُ!.

وَافَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فِكْرَتِهِ وَتَصَارَعَ سَمُرَةُ وَرَافِعٌ، وَعُيُونُ الْصحابةِ تَرقبُهُمَا بِالْإِجْلَالِ وَالْإِكْبَارِ، فَكَانَ الْفَوْزُ لِسَمُرَةَ؛ فَضَحِكَ الْمُسْلِمُونَ، وَسُرَّ الرَّسُولُ ﷺ مِنْهُمَا، وَسَمَحَ لِسَمُرَةَ بِنَيْلِ شَرَفِ الْجِهَادِ مَعَ صَدِيقِهِ رَافِعٍ.

انْطَلَقَ الْغُلَامُ الصَّغِيرُ كَالَّليثِ الهَصُورِ، يَصُولُ وَيَجُولُ، يَضْرِبُ الْمُشْرِكِينَ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ، وَشَجَاعَةِ الأَبْطَالِ، ويَصْرُخُ بِمِلْءِ فِيهِ: (اللَّهُ أَكْبَرُ!)، حَتَّى انْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ، وعُرِفَ الأَبْطَالُ والصَّابِرونَ، وَكَم كَانَتْ فَرْحَةُ سَمُرَةَ عَظِيمَةً عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّهُ مِنْهُمْ!.

***

سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ

(صَاحِبَا المِرْبَدِ)

التِّلْمِيذَانِ اليَتِيمَانِ

سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ غُلَامَانِ صَغِيرَانِ، تَرَكَهُمَا أَبُوهُمَا يَتِيمَيْنِ بَعْدَ أَنْ رَحَلَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ..

كَانَ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ فاضِلٌ اسْمُهُ (أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ)، وَكَانَ نقيبـًا عَلَى قَبِيلَتِهِ (بَنِي النَّجَّارِ)، فَأَخَذَ الْغُلَامَيْنِ الْيَتِيمَيْنِ فِي حِجْرِهِ[1].

دَخَلَ أَسْعَدُ فِي الْإِسْلَامِ، وَنَشَرَ الدِّينَ فِي بَيْتِهِ، وَوَصَلَ شُعَاعُهُ إِلَى سَهْلٍ وَسُهَيْلٍ، فَأَخَذَا يتعلّمانِ آدَابَ الْإِسْلَامِ وَهُمَا طِفلانِ صَغِيرَانِ، جَاءَتِ الْأَخْبَارُ السَّارَّةُ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي طَرِيقِهِ إِلَى يَثْرِبَ، فَصَارَ الْمُسْلِمُونَ، يَخْرُجُونَ كُلَّ يَوْمٍ لِانْتِظَارِ رَسُولِ اللهِ الْكَرِيمِ ﷺ ، وَكَانَ سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ يَخْرُجَانِ مَعَهُمْ.

وَصَلَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ إِلَى يَثْرِبَ، وَانْطَلَقَ سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ مَعَ الْجُمُوعِ الغَفِيرَةِ لِاسْتِقْبَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَا فِي غَايَةِ الشَّوْقِ لِرُؤْيَتِهِ.

هُرِعَ زُعَمَاءُ يَثْرِبَ إِلَى مَوْكِبِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَسْبِقَ غَيْرَهُ فِي شَرَفِ اسْتِضَافَةِ الرَّسُولِ ﷺ عِنْدَهُ.

أَقْبَلُوا عَلَيْهِ، كُلٌّ يَعْرِضُ لَهُ بَيْتَهُ وبُسْتانَهُ.. وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ لَهُمْ مِنْ فَوْقِ نَاقَتِهِ: (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ)! أَيْ: إِنَّ النَّاقَةَ مَأْمُورَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْمَكَانِ الَّذِي سَتَبْرُكُ فِيهِ.

أَخَذَتِ النَّاقَةُ تَمْشِي فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ، وَقُلُوبُ الْأَنْصَارِ تَخْفِقُ.. الكلُّ

(١) في حِجْرِهِ : في حضانته ورعايته

يَدْعُو اللهَ فِي سِرِّهِ أَنْ تَبْرُكَ النَّاقَةُ أمامَ بَيْتِهِ لِيَنَالَ الشَّرَفَ الْعَظِيمَ.

النَّاقَةُ تَمْشِي.. وَتَقِفُ.. ثُمَّ تَمْشِي، فَإِذَا جَاوَزَتْ منزلاً حَزِنَ أَهْلُهُ وَأَصَابَهُمُ الْيَأْسُ.. وَلَكِنَّ الأَمَلَ يُشْرِقُ فِي قُلُوبِ مَنْ كَانَ بَيْتُهُ فِي طَرِيقِ النَّاقَةِ.

وفجأةً بَرَكَتِ النَّاقَةُ فِي مِرْبَدٍ[1] قُرْبَ مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ، وَكَم كَانَتْ فَرْحَةُ سَهْلٍ وَسُهَيْلٍ غَامِرَةً! لِأَنَّ الْمِرْبَدَ وَرِثَاهُ عَنْ أَبِيهِمَا.. عَانَقَ سَهْلٌ سُهَيلاً قائلاً: الْحَمْدُ لِلَّهِ بَرَكَتِ النَّاقَةُ فِي مِرْبَدِنا.. إِنَّهُ لَشَرَفٌ عَظِيمٌ لَنَا.

سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَنْ صَاحِبِ الْمِرْبَدِ، فَتَقَدَّمَ الغُلامانِ الْيَتِيمَانِ فَرِحَيْنِ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ، وَقَالَا لِلرَّسُولِ ﷺ: نُقَدِّمُ الْمِرْبَدَ هَدِيَّةً لَكَ، وألحَّا عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَبَى أَنْ يَأْخُذَ هَدِيَّهً مِنْ غُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ، فَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ، أَنْ يَدْفَعَ لَهُمَا ثَمَنَ الْمِرْبَدِ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ، وَأَمَر بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ عَلَيْهِ.

وَكَم كَانَتْ فَرْحَةُ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ كَبِيرَةً؛ لِأَنَّ بَيْتَهُ الأَقْرَبُ إِلَى الْمِرْبَدِ، فَنَزَلَ عِنْدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَامَ الْمُسْلِمُونَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَبَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى مِرْبَدِ سَهْلٍ وَسُهَيْلٍ.

***

(١) المِرْبَد: مَكَان الإبل ومحبسها.

طَلْحَةُ بْنُ الْبَرَاءِ

التِّلْمِيذُ الْمُطِيعُ

مِنْ دِيَارِ سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ عَلَى أَطْرَافِ الْمَدينةِ، قَدِم الْغُلَامُ طَلْحَةُ يَدْفَعُهُ الشَّوْقُ لِرُؤْيَةِ حَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى ﷺ.

دَقَّاتُ قَلْبِهِ تَتَسَارَعُ، وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنَ الْجَمْعِ الْغَفِيرِ مِنَ الرِّجَالِ، الَّذِينَ الْتَفُّوا حَوْلَ نَبِيِّ الْهُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ؛ جَعَل طَلْحَةُ يَشُقُّ الصُّفُوفَ، وَهُوَ يَلْهَثُ مِنَ التَّعَبِ، بَعْدَ أَنْ قطعَ تِلْكَ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَقَبِيلَتِهِ جَرْيًا؛ بُغْيَةَ التَّنَعُّمِ بِمَرْأَى الْحَبِيبِ ﷺ.

أَشْرَقَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ كَمَا لَمْ تُشْرِقْ مِنْ قَبْلُ لَدَى مُثولِهِ[1] بَيْنَ يَدَيِ الصَّادِقِ الأَمِينِ.. شَعَرَ بِراحةٍ واطْمِئنانٍ، لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِمِثْلِهِمَا مِنْ قَبْلُ.

صَوَّبَ النَّظَرَ، وَعَلَتْ وَجْهَهُ إِشْراقةٌ مِن نُورٍ، وَزَيَّنتِ البَسْمَةُ شَفَتَيْهِ، وَهُو يَعِيشُ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الْعَامِرَةَ بِالسَّعَادَةِ وَالسُّرُورِ.

كَادَ قَلْبُهُ يَقْفِزُ مِن بَيْنِ أَضْلُعِهِ فرَحًا بِلِقَاءِ الْحَبِيبِ، الَّذِي شَغَلَ فُؤَادَهُ وَمَلَكَ عَلَيْهِ لُبَّهُ[2] مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ قَبْلَ هَذَا اللِّقَاءِ.

جَعَل طَلْحَةُ يُزَاحِمُ الرِّجَالَ؛ لِيقتَرِبَ مِن حَبِيبِهِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ.. كَانَتِ الْكَلِمَاتُ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْظُومَةً كَحَبَّاتِ اللُّؤْلُؤِ فِي عِقدٍ جَميلٍ، تُرْسِلُ بَرِيقَهَا الأَصِيلَ، لِيخترِقَ الْقُلوبَ فَتَسْكُنَ بِهِ وَتَشْعُرَ بالهناء.. جَعَلَتْ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ تَجْذِبُ طَلْحَةَ، لِيَلْصَقَ بِالنَّبِيِّ الكَرِيم ﷺ.

---

(١) مُثوله: وقوفه.

(٢) لُبُّهُ: عقله.

إِسْتَشْعَرَ أَثَرَ تِلْكَ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ.. كَيْفَ لَا!؟ وَهُوَ يَقِفُ الْآنَ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ مَنِ اصْطَفَاهُ اللهُ رحمةً لِلْعَالَمِينَ.

لَمْ يَتَمالَكْ طَلْحَةُ نَفْسَهُ؛ فَانْكَبَّ[1] يُقَبِّلُ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.. سَالَتِ الدُّمُوعُ بِحَرَارَةِ الْإِيمَانِ وَالْمحَبَّة لِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ الْكَرِيمِ ﷺ رَفَعَ رَأْسَهُ لِيَتَأَمَّلَ الْوَجْهَ الْمُضِيءَ.. وَانْدَفَعَتْ كَلِمَاتُهُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ تُعَبِّرُ عَنْ إِيمَانِهِ الْعَظِيمِ:

- يَا رَسُولَ اللهِ.. مُرْنِي بِمَا أَحْبَبْتَ، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا!!

عَجِبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ فِعْلِ وَقَوْلِ الْغُلَامِ الصَّغِيرِ طَلْحَةَ بْنِ الْبَرَاءِ.. نَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةَ إِشْفَاقٍ وحَنانٍ.. رَأَى أَنْ يَخْتَبِرَ إِيمَانَهُ.. قَالَ لَهُ:

- **اذْهَبْ فَاقْتُلْ أَبَاكَ!!**

نَهَضَ طَلْحَةُ، وَنَظَرَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ؛ كَمَنْ يُوَدِّعُهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ مُولِّيًا، قَدْ عَزَمَ عَلَى تَنْفِيذِ مَا أَمَرَهُ بِهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ ، وَلَكِنْ لَمْ يَخْطُ بِضْعَ خُطُوَاتٍ، حَتَّى سَمِعَ نِدَاءَ الْمُصْطَفَى: يَدْعُوهُ لِلعودَةِ:

- **(أَقْبِلْ فَإِنِّي، لَمْ أُبْعَثْ بِقَطِيعَةِ الرَّحِمِ!!)**

شَعَرَ بِبَرْدِ الْيَقِينِ يَغْمُرُ قَلْبَهُ الْكَبِيرَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ.. عَادَ وَجَلَسَ مُطرِقًا؛ يَسْتَمِعُ لِتَوْجِيهاتِ الرَّسُولِ ﷺ .. كَلِمَاتٌ حَانِيةٌ أَحَسَّ طَلْحَةُ مَعَهَا بالدِّفْءِ وَالسَّكِينَةِ:

- **(يَا طَلْحَةُ، إِنَّهُ لَيْسَ فِي دِينِنَا قَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَلَّا يَكُونَ فِي دِينِكَ رِيبَةٌ!!).**

أَدْرَكَ طَلْحَةُ عَظَمَةَ الْإِسْلَامِ.. ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَادَ إِلَى قَومِه.. أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ

(١) انْكَبَّ: اقبل واسرع.

مَسرُورًا بِلِقاءٍ طَالَمَا حَلُمَ بِتَحقيقِهِ.. رَأَى وَالِدَاهُ بَشائِرَ الْفَرْحَةِ عَلَى مُحَيَّاهُ.. كَانَا يُحبَّانِهِ كثيرًا لِطَاعَتِهِ لَهُمَا وَبِرِّهِ بِهِمَا.. سُرْعَانَ مَا اسْتجَابا لَهُ وَدَخَلَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ.

مَكَثَ طَلْحَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مُدَّةً يَسيرةً عَاشَ خِلَالَها حياةً مَلِيئَةً بِالْإِيمَانِ وَالْعِبَادَةِ.. ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا أَقْعَدَهُ فِي الْفِرَاشِ.

وَمَا إِنْ عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ .. بِمَرَضِهِ حَتَّى انطَلَقَ لِعِيَادَتِهِ فِي يَوْمٍ غَيْمٍ ومَطرٍ شَدِيدٍ.. وَرَآهُ فِي فِرَاشِهِ غائِبًا عَن وَعْيِهِ.. فرَثَى لِحَالِهِ وَتَأَلَّمَ لَهُ.. وَالْتَفَتَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: (مَا أظنُّ طَلْحَةَ إِلَّا مقبوضًا مِنْ لَيْلَتِهِ، فَإِنْ أَفَاقَ فَأَرْسِلُوا إِليَّ).

وَيَفِيقُ طَلْحَةُ وَيَنْظُرُ مَنْ حَوْلَهُ.. يَتَأَمَّلُ الرِّجَالَ، فَلَا يَجِدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ .. يَشْعُرُ بِشوقٍ عَظيمٍ إِلَى حَبِيبِهِ ﷺ .. ويَسْأَلُ مَنْ حَوْلَهُ:

- أَمَا عَادَنِي[1] رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟!

يُطَمْئِنُهُ الرِّجَالُ ويخبِرونَهُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ .. عَادَهُ، وَقَالَ فِيهِ مَا قَالَ.. فَتَهدَأُ نَفْسُ طَلْحَةَ.. وتُشْرِقُ جَبْهَتُهُ.. وَتَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ كَلِمَاتٌ لَا تَكَادُ تُسمَعُ..

- إِنْ أَنَا مُتُّ فَادْفِنُونِي وأَلحِقُونِي بِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، وَلا تَدْعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فِي مِثْلِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ الْيَهُودَ، أَنْ يُصَابَ بِسَبَبِي.. وأَقرِئُوهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُولُوا لَهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لِي!.

وَيُغْمِضُ طَلْحَةُ عَيْنَيْهِ.. وَتَنْفَرِجُ شَفَتَاهُ عَن ابتِسامةٍ هَادِئَةٍ.. وَتَرقَى رُوحُهُ إِلَى بَارِيهَا..

(١) عادَني: زارني في مرضي.

وَفِي الصَّباحِ تَصِلُ أخْبَارُ الْغُلَامِ طَلْحَةَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فينهضُ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ مَعَ أَصْحَابِهِ ويُهرَعُونَ إلَى قَبْرِهِ.. وَيَرْفَعُ النَّبِيُّ يَدَيْهِ الشَّرِيفَتين، ويَدْعُو:

- (اللَّهُمَّ الْقَ طَلْحَةَ تَضْحَكُ إِلَيْهِ، وَيَضْحَكُ إِلَيْكَ.!)[1]

وتَنهَمِرُ دُمُوعُ الصَّحَابَةِ.. وَيَتَمَنَّى كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَبْلُغَ مَا بَلَغَ طَلْحَةُ، وَأَنْ يُحِبَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلَ حُبِّ الْغُلَامِ طَلْحَةَ!

***

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/١٧٥/١)، وانظر: أنيس الساري تخريج أحاديث فتح الباري: (٢/ ٢٣٣٤- ٢٣٣٦).

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ

الطَّالِبُ الشُّجَاعُ

امْتَلَأَتْ قُلُوبُ الْيَهُودِ غَيْظًا مِنْ هِجْرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَثْرِبَ، وَزَادَ حِقْدُهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَهْلَ يَثْرِبَ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَرَّرُوا أَنْ يُحَارِبُوهُمْ بِالْكَيْدِ والإشَاعَاتِ وَالأَرَاجِيفِ(١). فَاجْتَمَعَ كَهَنَتُهُمْ(٢) وَسَحَرَتُهُمْ عَلَى تَرْوِيجِ إِشَاعَةٍ خَبِيثَةٍ كَعَادَتِهِمْ، وَهِيَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ سُحِرُوا، فَقَدْ أُصِيبوا بالعُقمِ(٣)، فَلَن تَشْهَدَ يَثْرِبُ لَهُمْ وَلِيْدًا جَدَيدًا بَعْدَ الْيَوْمِ!.

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِسَ أَلْسِنَتَهُم، وَيَدْحَضَ كَذِبَهُمْ. فَهَا هُوَ ذا أَوَّلُ مَوْلُودٍ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يَرَى النُّورَ، فَيَتَسَارعُ الْمُسْلِمُونَ لِحَمْلِهِ وَالطَّوَافِ بِهِ بَيْنَ أَحْيَاءِ(٤) الْيَهُودِ مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ(٥).

فَمَنْ هُوَ هَذَا الْمَوْلُودُ الصَّغِيرُ!؟

إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، أُمُّهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، حَمَلَهُ أَبُوهُ الزُّبَيْرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُسَمِّيَهُ وَيُحَنِّكَهُ(٦). فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَبْدِ اللَّهِ، وَدَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا مَعَ رِيقِهِ الطَّاهِرِ، ثُمَّ أَدْخَلَهَا فِي فَمِ عَبْدِ اللَّهِ وَبَارَكَ فِيهِ.

نَشَأَ الْمَوْلُودُ الصَّغِيرُ وَتَرَعْرَعَ بَيْنَ أَحْضَانِ بِنْتِ الصِّدِّيقِ أُمِّهِ أسماءَ، وَابْنِ عَمَّةِ الرَّسُولِ أبيهِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ أَحَدِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، فَنَشَأَ نَشْأَةَ الصِّدْقِ وَالشَّجَاعَةِ؛ لأَنَّهُ فِي بَيْتٍ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ بِالتَّقْوَى.

(١) الأَرَاجِيف: الأخبار المرعبة.

(٢) الكهنة: رجال الدين اليهودي.

(٣) العقم: عدم إنجاب المواليد.

(٤) أحياء: مناطق سكناهم.

(٥) مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ: يقولون: لا إله إلا الله، الله أكبر.

(٦) يُحَنِّكَهُ: يضع تمراً ممضوغاً في فم الطفل بعد أن يخرجها من فمه.

تَعَلَّمَ عَبْدُاللهِ الشَّجَاعَةَ مُنْذُ صِغَرِهِ، وَشَهِدَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالشَّجَاعَةِ وَعُمْرُهُ سَبْعُ سِنِينَ، فَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ عُمَرُ يَمْشِي فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَعَبْدُ اللهِ يَلْعَبُ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَفَرُّوا جَمِيعًا إِلَّا هُوَ..! ظَلَّ وَاقِفًا مَكَانَهُ، فَلَاحَظَ عُمَرُ ذَلِكَ وَاقْتَرَبَ مِنْهُ يَسْأَلُهُ: لِمَ لَمْ تَفِرَّ كَمَا فَرَّ أَصْحَابُكَ؟

فَقَالَ لَهُ: لَمْ تَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقَةً فَأُوسِعَ لَكَ، وَلَمْ أَفْعَلْ ذَنْبًا فَأَخَافَكَ!!

سُرَّ عُمَرُ مِنْ إِجَابَتِهِ وَعَرَفَ مِنْ يَوْمِهَا أَنَّ لِهَذَا الْغُلَامِ شَأْنًا عَظِيمًا.

هَلْ يَخَافُ مِنْ عُمَرَ مِنْ دُونِ ذَنْبٍ اقْتَرَفَهُ أَوْ عِقَابٍ يَنْتَظِرَهُ؟

وَهُوَ رَجُلٌ وإِنْ كانَ طِفْلًا صَغِيرًا؛ فقدْ قابلَ رسولَ اللهِ مقابلةَ الرِّجالِ..

كانَ قَدْ بَايَعَ الرَّسُولَ مَعَ أَصْحَابِهِ قَبْلَ أَيَّامٍ، فَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟

كَانَ عَبْدُ اللهِ الصَّغِيرُ يَرَى كُلَّ يَوْمٍ عَشَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ ويمدُّونَ أَيْدِيَهُمْ مُبَايِعِينَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ، فَفَكَّرَ لِمَ لَا يَفْعَلُ مِثْلَهُم!؟

فَذَهَبَ إِلَى أَصْدِقَائِه لِيَعْرِضَ عَلَيْهِمُ الفِكْرَةَ.. وَبَعْدَ مُنَاقَشَاتٍ وَافَقُوا وَقَرَّرُوا أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْمَسْجِدِ لِلْمُبَايَعَةِ.

تَقَدَّمَ الصِّبْيَانُ الصِّغَارُ مِنْ رَسُولِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَتَكَلَّمُوا مَعَه، لَكِنَّهُم تَلَعْثَمُوا وَلَمْ يَعرِفْ رسُولُ اللهِ مَاذَا يُرِيدُون.. عِنْدَهَا تَقَدَّمَ عَبْدُ اللهِ أَصْحَابَهُ وَقَالَ: جِئْنَا نُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَنْ نُدَافِعَ عَنِ الإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ وَعَنْكَ!!

سُرَّ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ فِعْلِهِمْ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِم مُصَافِحًا ومُعْجَبًا بِرُجُولَتِهِمْ وَهُوَ يَبْتَسِمُ.

ظَلَّ عَبْدُاللَّهِ يُفَاخِرُ زُمَلاءَهُ قَائِلًا: هَاجَرْتُ وَأَنَا فِي بَطْنِ أُمِّي، وَبَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ احْتَجَمَ[1] النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: (يَا عَبْدَ اللَّهِ، اذْهَبْ بِهَذَا الدَّمِ فَأَهْرِقْهُ[2] حَيْثُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ!)، فَلَمَّا بَرَزَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمدَ إِلَى الدَّمِ فَشَرِبَهُ، فَلَمَّا رَجعَ قَالَ لَهُ الرَّسُولُ: (يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا صَنَعْتَ بِالدَّمِ؟) قَالَ: جَعَلْتُهُ فِي أَخْفَى مَكَانٍ عَلِمْتُهُ، إِنَّهُ يَخْفَى عَلَى النَّاسِ. قَال: (لَعَلَّكَ شَرِبْتَهُ!) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: (وَلِمَ شَرِبْتَ الدَّمَ!؟ وَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ، وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ!)

وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَرَوْنَ أَنَّ الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَةَ الَّتِي بِعبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ مِنْ ذَلِكَ الدَّمِ.

(١) الحجامة: إخراج دم من الجسم بطريقة معينةكي ينشط الإنسان.

(٢) اهْرِقْهُ: صُبَّهُ على الأرض.

عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ

الطالِبُ الذي مَسَحَ الرَّسُولُ على راسِهِ

ضَاقَ الْمُسْلِمُونَ ذَرعًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَبَعْدَ أَنْ أَعْيَتْهُمُ الْحِيَلُ فِي صَدِّ رَسُولِ اللَّهِ عَنْ دَعْوَتِهِ، كَشَّرُوا عَن أنيابِهم، وَأَظْهَرُوا قَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ.

فَهَا هُوَ بِلَالٌ الْحَبَشِيُّ، يَقُولُ: (أَحَدٌ أَحَدٌ) فِي الظَّهِيرَةِ الحارِقَةِ، وَسَيِّدُهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ يَضَعُ الصَّخْرَةَ الثَّقِيلَةَ عَلَى صَدْرِهِ، ولَنْ يُزِيحَهَا حَتَّى يَكفُرَ بِمُحَمَّدٍ وَالدِّينِ الْجَدِيدِ.

وَهَا هُمْ آلُ يَاسِرٍ يَكِيلُ لَهُمْ أَبُو جَهْلٍ أَصْنَافَ الْعَذَابِ، وَلَمْ يَشْفِ غَلِيلَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ اسْتُشْهِدَتْ سُمَيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا قَبِيلَةَ لَهُمْ تَحْمِيهِمْ، ولا أُسْرةَ قويَّةَ تردُّ عنهُمُ العذابَ الشديدَ الذي تَعَرَّضُوا لَـهُ من الضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ، واسْتَمَرَّ مُسَلْسَلُ العذابِ يوميًّا، وامتدَّ في جميعِ أزقَّةِ مكَّةَ وَجَنَباتِها، وَحَتَّى طَالَتْ قَساوَتُهمْ أَغْلَبَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَتَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ ينجُ مِنْ كَيْدِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ عَمَّيْهِ أَبِي طَالِبٍ، وَحَمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه.

لِذَا أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِالْهِجْرَةِ إِلى الْحَبَشَةِ.

وَكَانَ مِمَّنْ هَاجَرَ إِلى الْحَبَشَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ وَامْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وَعُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ وَزَوْجَتُهُ رُقَيَّةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وَهُنَاك فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ, وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذ إعْلَانِ إسْلَامِهِم يَشْعُرُونَ بِالأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَهُم يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ دُونَ خوفٍ مِنْ أَحَدٍ.

وَلَمَّا كَانَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذَا عِلْمٍ، وَمَكَانَةٍ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، قَرَّبَهُ مَلِكُ الْحَبَشَةِ النَّجَاشِيُّ، فَصَارَ يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ كُلَّ يَوْمٍ، وَلَمَّا كَانَ يَختلِي بِهِ كَانَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وأخيرًا نَطَقَ مَلِكُ الْحَبَشَةِ بِالشَّهَادَتَيْنِ أمَامَ جَعْفَرٍ وَبَعْضِ الصَّحَابَةِ، ولَكِنَّهُ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ سِرًّا بَيْنَهُمْ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ قَومُهُ بِإسْلَامِهِ، فيكِيدُوا لَهُ.

كَانَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ تَحْمِلُ جَنِينًا فِي رَحِمِهَا، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا بِشَوْقٍ كَبِيرٍ؛ لِيَرَوْا أَوَّلَ مَوْلُودٍ بِالْحَبَشَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ عَمَّتِ الْفَرْحَةُ قلوبَ الْمُسْلِمِينَ المهاجِرِينَ، فَفَرِحُوا كَثِيرًا بِقُدُومِ ابْنِ جَعْفَرٍ حَفِيدِ أَبِي طَالِبٍ.

زَارَ النَّجَاشِيُّ بَيْتَ جَعْفَرٍ؛ فَهَنَّأَ الْوَالِدَيْنِ وسَأَلَهُما: مَاذَا أَسْمَيتُماهُ؟ قَالَا لَهُ: عَبْدُ اللهِ، ففرِحَ كثيرًا.

وَبَعْدَ مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ وَلَدَتِ امْرَأَةُ النَّجَاشِيِّ غُلَامًا.. فَسَمَّاهُ النَّجَاشِيُّ « عَبْدَ اللهِ » أَيْضًا محبةً بِالْمُسْلِمِينَ وَمَحَبَّةً بِوَالِدَيْهِ، وَعَهِدَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ أَنْ تُرْضِعَ عَبْدَ اللهِ بنَ النَّجَاشِيِّ، مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ!.

هَكَذَا عَاشَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْحَبَشَةِ فِي كَنَفِ وَالِدَيْهِ، وَفِي رِعَايَةِ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، ونَهَلَ عَبْدُ اللهِ مِنْ أَبِيهِ صِفَاتٍ عَظِيمَةً، كَانَ جَعْفَرُ يَتَحَلَّى بِصِفَاتٍ

نادرةٍ أَهَمُّهَا: أنهُ كَانَ كَثِيرَ الشَّبَهِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَمَّا الصِّفَاتُ الخُلُقِيَّةُ: فَحَدِّثْ وَلَا حَرَجَ، فَلَا تُذْكَرُ الشَّجَاعَةُ وَالبُطُولَةُ وَالْحِكْمَةُ وَالْحَقُّ وَالْعَدْلُ؛ إلَّا كَانَ جَعْفَرُ يُشْبِهُ ابْنَ عَمِّهِ بِهَا.

مَرَّتِ الْأَيَّامُ والسِّنُونُ، وَفِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ رَجعَ جَعْفَرٌ وَأَسْمَاءُ وَعَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ؛ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَبْشَرَ بِابْنِ عَمِّهِ خَيْرًا، فَقَدْ كَانَ لِقُدُومِهِ مُنَاسَبَةٌ عَظيمةٌ، لقَدْ فَتَحَ اللهُ حُصُونَ خَيْبَرَ الْمَنِيعَةَ، فَانْكَبَّ عَلَى جَعْفَرٍ، يَقُولُ: « مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا، بفتحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرَ !؟ ».

وَعَاشَ عَبْدُاللهِ مَعَ وَالِدَيْهِ قُرْبَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَعَلَّمُ الصَّلَاةَ مِنْ أَبِيهِ؛ لِأَنَّهُ صَارَ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ، وَيَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَالْآدَابَ مِنْ أُمِّهِ أَسمَاءَ الَّتِي أَحَبَّتْ أَنْ تَغْرِسَ الْفَضَائِلَ فِي نُفُوسِ أَوْلَادِهَا.

لَمْ تَطُلْ فرحةُ عبدِاللهِ بْنِ جَعْفَرٍ كَثِيرًا بِوَالِدِهِ.. فَفِي أَوَائِلِ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ جَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَيْشًا بِقِيادةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ لِمُلَاقَاةِ الرُّومِ فِي قَرْيَةِ مُؤْتَةَ، وَانْطَلَقَ الْجَيْشُ، وَلَمَّا وَصَلَ هُنَاكَ؛ فُوجِئَ بِجَيْشِ الرُّومِ الْعَرَمْرمِ[1]، فَقَدْ أَعَدُّوا مِئَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ!.

مَاذَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُونَ وَعَدَدُهُم ثَلَاثَةُ آلَافٍ فَقَطْ!؟

دَارَتْ رَحَى الْمَعْرَكَةِ، وخَرَّ القَائِدُ الأَوَّلُ زَيدٌ شَهِيدًا.. فَانْطَلَقَ جَعْفَرٌ كَالْأَسَدِ

(١) العرمرم: الكبير الضخم.

الهَصُورِ[١] عَلَى فَرَسِهِ، وخَطفَ الرَّايَةَ مِنْ زَيْدٍ، وَحَمَلَهَا بِيُسْرَاهُ، وَأَمَّا يُمْنَاهُ فَقَدِ اسْتلَّتْ سَيْفًا عَمِلَ بِهِ فِي رِقَابِ الرُّومِ، وَظَلَّ يُقَاتِلُ حَتَّى قُطِعَتْ يُمْنَاهُ، فَغَرَسَ الرَّايَةَ فِي الأَرْضِ، وَحَمَلَ بِيُسْرَاهُ السَّيفَ، وَظَلَّ يُقَاتِلُ حَتَّى قُطِعَتْ هِيَ الأُخْرى، فَأَمْسَك الرَّايَةَ بِعَضُدَيْهِ، وَضَمَّهَا إِلَى صَدرِهِ.. وَفِي الْحَالِ أَتَتْهُ ضَرْبَةٌ أَوْقَعَتْهُ عَلَى الأَرْضِ شَهِيدًا.. عِنْدَهَا حَمَلَ الرَّايَةَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّى لَحِقَ بِصَاحِبَيهِ.

مَنْ سَيَكُونُ قَائِدَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَّرَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجَيْشِ، لَمْ يَجِدِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ الَّذِي اسْتَطَاعَ بِحِنكَتِهِ أَنْ يَنْسَحِبَ مِنْ أَرضِ الْمَعْرَكَةِ بِأَقَلِّ الخَسائِرِ، فَلَمَّا هَجَمَ اللَّيْلُ وَاشْتَدَّ الظَّلَامُ، وَأَخَذَ كُلُّ فَرِيقٍ هُدْنَةً[٢] حَتَّى صَبَاحِ الغَدِ، خطط خَالِدٌ لجَيْشِهِ أَنْ يَنْسَحِبَ بِخَديعَةٍ، فَقَدْ طَلَبَ مِنَ الْفُرْسَانِ أَن يَلُفُّوا، ويُثِيرُوا الْغُبَارَ، فاسْتجابُوا فِي الحالِ حَتَّى مَلَؤُوا الجَوَّ نَقْعًا[٣]، فَظَنَّ الرُّومُ أَنَّ أَعْدادًا غَفِيرَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَاءَتْ لِنجْدَتِهم، فَخَافُوا وَانْسَحَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ، وَلَمَّا تَنَفَّسَ الصُّبْحُ، تَيَقَّنَ مَنْ تَبَقَّى مِنْ جَيْشِ الرُّومِ؛ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ خَدعُوهُم، وانْسَحبُوا.

وَقَبْلَ أَنْ يَنْطَلِقَ خالدٌ بجيشِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِاسْتِشْهَادِ خِيرَةِ أَصْحَابِهِ؛ فَحَزِنَ عَلَيْهِمْ كَثِيرًا، وَانطَلَقَ إِلَى بَيْتِ جَعْفَرَ؛ لِيُبَلِّغَ أَسْمَاءَ وَأَوْلَادَهَا بِمَا حَدَثَ لِجَعْفَرٍ، وَمَا إِنْ رَأَوْهُ حَزِينًا، حَتَّى عَرَفُوا أَنَّ شَيْئًا قَدْ حَصَلَ لِجَعْفَرٍ، وَلْنَدَعِ الْغُلَامَ عَبْدَاللهِ يُحَدِّثْنَا بِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ:

(١) الهصور: القوي.

(٢) الهدنة: وقتٌ لا قتال فيه.

(٣) النقع: غبار المعركة.

قَالَ: أَنَا أَذْكُرُ حِينَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أُمِّي؛ فنعَى لَهَا أَبِي، فَصِرْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ عَلَى رَأْسِي، وَرَأْسِ أَخِي، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ الدُّموعَ حَتَّى تَقْطُرَ لِحْيَتُهُ، ثُمَّ قَالَ: « اللهم إِنَّ جَعْفَرَ قَدْ قَدِمَ إِلَى أَحْسَنِ الثَّوَابِ، فَاخْلُفْهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ بِأَحْسَنِ مَا خَلَفْتَ أحدًا مِنْ عِبَادِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ »، ثُمَّ قَالَ: « يا أَسْمَاءُ، أَلَا أُبَشِّرُكِ؟ » قَالَتْ: بَلَى، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: « إِنَّ اللهَ جَعَلَ لِجَعْفَرٍ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الجَنَّةِ »، قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَعْلِمِ النَّاسَ بِذَلِكَ. فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَخَذَ بِيَدِي يَمْسَحُ رَأْسِي، حَتَّى رَقِيَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَأَجْلَسَنِي أَمَامَهُ عَلَى الدَّرَجَةِ السُّفْلَى، وَالْحُزْنُ يُعرَفُ عَلَيْهِ، فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: « إِنَّ الْمَرْءَ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ، أَلَا إِنَّ جَعْفَرَ قَدِ اسْتُشْهِدَ، وَقَدْ جُعِلَ لَهُ جَنَاحَانِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الجَنَّةِ، ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَدْخَلَنِي مَعَهُ، وَأَمَرَ بِطَعَامٍ فَصُنِعَ لِأَهْلِي، وَأَرْسَلَ إِلَى أَخِي، فَتَغَدَّيْنَا عِنْدَهُ « وَاللهِ » غداءً طَيِّبًا مُباركًا.

وَظَلَّ عَبْدُاللهِ يَنْهَلُ مِنْ مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ: الْعِلْمَ النَّافِعَ، وَالأَخْلَاقَ الْكَرِيمَةَ، وَكَانَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ كُلَّمَا رَآهُ يَحِنُّ عَلَيْهِ وَيُقَبِّلُهُ، وَيُرْدِفُهُ خَلْفَهُ، أَوْ يَضَعُهُ فِي حِضْنِهِ.

فَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَكَانَ يَرْكَبُ دَابَّتَهُ، فَرَأَى الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَعَبْدَاللهِ، يَلْعَبُون فَحَمَلَ عَبْدَ اللهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَرْدَفَ سِبْطَيْهِ[1]، وَأَوْصَلَ كُلَّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ.

وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ كَثِيرًا؛ فَلْنَسْتَمِعْ مَرَّةً أُخْرَى لِعَبْدِاللهِ بْنِ جَعْفَرٍ يُحَدِّثُنَا: مَاذَا حَصَلَ

(١) السبط: الحفيد من البنت.

بَيْنَهُ وبَينَ الرَّسُولِ ﷺ!؟

قَالَ: أَردفَنِي(١) رَسُولُ اللهِ ﷺ وراءَه ذَاتَ يَوْمٍ، فأَسَرَّ إِلَيَّ حديثًا لَا أُحَدِّثُ بِه أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَان أَحبَّ مَا استَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفٌ أَو حَائِشُ نَخْلٍ(٢) فَدَخَلَ حائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فإِذا فِيهِ جَمَلٌ، فَلَمَّا رأَى النَّبِيَّ ﷺ جَرْجَرَ(٣) وذَرِفَتْ(٤) عَيْنَاهُ، قَالَ: فأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ رأْسَهُ إِلى سَنَامِهِ وذِفْرَيْهِ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: « من رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ »

فجاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: « أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ »(٥).

لَمْ يَجْلِسْ عبدُ اللهِ فِي بَيْتِهِ يَلْهُو فِي أَلْعَابِهِ، أَوْ يَلْعَبُ فِي الشَّارِعِ مَعَ أَصْحَابِهِ طِيلَةَ الوَقْتِ، بَلْ كَانَ بَعْدَ أَنْ يَلْعَب قَلِيلًا يَتَوَجَّهُ لِلْمَسْجِدِ يُصَلِّي وَيقْرَأُ وَيَحْفَظُ، فَقَد حفِظَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَوَى عَنْهُ أَحَادِيثَ، ورَوَى عَنْ أَبَوَيْهِ، فَرَوَى عَنْ أُمِّهِ أَسْماءَ، وَرَوَى عَنْ عَمِّهِ: عَلِيِّ بْنِ أَبي طَالِبٍ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُثْمَانَ، وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَلَمَّا صَارَ عُمْرُ عَبْدِ اللهِ عَشْرَ سَنَوَاتٍ، حَزِنَ كَثِيرًا فَقَدْ رَحَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى رَبِّهِ، وَاشْتَرَكَ مَعَ أَصْدِقَائِهِ الصِّغَارِ فِي الصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي

(١) أردفني: جعلني خلفه.

(٢) حَائِشُ نَخْلٍ: بستان.

(٣) جرجر الجمل: أصدر صوتًا من الضجر.

(٤) ذرفت عيناه: فاضت بالدمع.

(٥) تدئبه: تتعبه كثيرًا.

حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاعِدَيْهِ، وَاشْتَغَلَ بِالْعِلْمِ وَالتِّجَارَةِ، كَمَا اشْتُهِرَ بِالْكَرَمِ وَالسَّخَاءِ؛ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ مَا يَحْتَاجُونَهُ، حَتَّى صَارَ النَّاسُ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ الْجَوَادَ ابْنَ الْجَوَادِ، وَقُطْبَ السَّخَاءِ.

***

عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ

الْغُلَامُ الْإِمَامُ

سَمِعَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ كَمَا سَمِعَهَا أَكْثَرُ أَبْنَاءِ قَبِيلَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَسْكُنُ بعيدًا عَنِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَلَكِنَّ عَمْرًا اهْتَمَّ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ؛ فَصَارَ يَلْتَقِطُ أَخْبَارَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ بِكُلِّ عِنَايَةٍ وَحِرْصٍ، وكَثيرًا مَا كَانَ يَذْهَبُ إِلَى بِئْرِ مَاءٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَضَارِبِ قَبِيلَتِهِ يَرْعَى حولَها أَغْنَامَ أَهْلِهِ، ويَأْتِي إِلَيْهَا الْمَسَافِرُونَ لِيَشْرَبُوا وَتَشْرَبَ أَنْعَامُهُمْ[1].

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ يَتْرُكُ غُنَيْماتِهِ الصَّغِيرَاتِ تَرْعَى حَوْلَ الْبِئْرِ، وَيَجْلِسُ يَنْتَظِرُ الْقَادِمِينَ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنورةِ؛ لِيَسْأَلَهُم عَمَّا أُنزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ.

وكثيرًا مَا كَانَ يَحْظَى بِمَا يُرِيدُ، فَبَعْضُ الْمَارِّينَ مِمَّنْ أَسْلَمَ كَانَ يُسَرُّ بِمَا يَطْلُبُ هَذَا الْغُلَامُ الصَّغِيرُ، فَصَارَ عَمْرٌو يَحْفَظُ الْكَثِيرَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وأَحَادِيثِ الرَّسُولِ، وَمِنْ يَوْمِهَا بَدَأَتْ أَخْلاقُهُ تَتَغَيَّرُ للأَحْسنِ، فَعُرِفَ بِأَخْلَاقِهِ وَصِدْقِهِ وَأَدبِهِ، فَقَدْ لاحَظَ أَقارِبُهُ وأَصْدِقَاؤُهُ ذَلِكَ، وَلَاحَظَ أَبُوهُ ذَلِكَ، وَكَمْ فَرِحُوا عِنْدَمَا اكْتَشَفُوا السَّببَ!.

ولَكِنَّهُ كَانَ يُعَانِي مِنْ قَبِيلَتِهِ عَنَاءً شَديدًا، لأنَّ الأَعْرَابَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانُوا عَلَى سَجَايَاهم[2]، كَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا فَتَحَ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ، وَانْتَصَرَ عَلَى قُرَيْشٍ فَهُوَ عَلَى حَقٍّ، وَإِنْ لم ينتصرْ فَقَومُهُ عَلَى حَقٍّ.

كَانَ عَمْرٌو يَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ قَوْمِهِ وَيَقُولُ لَهُمْ: يَا قَوْمُ.. إِنَّ محمدًا عَلَى حَقٍّ إِنِ انْتَصَرَ أَوْ لم ينتصرْ.. إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ!.

---

(١) الأنعام: الحيوانات التي تسرح وتؤكل كالجمال والبقر والأغنام.

(٢) سَجَايَاهم: براءتهم وطبيعتهم.

وَلَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ مَكَّةَ، ورجعَ إلى الْمَدينةِ الْمُنوَّرةِ، وَعَلِمَتِ الْعَرَبُ بِأَخْبَارِهِ صَارَتْ وُفُودُ قبائلِهِمْ تَذْهَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُبَايِعَةً عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ..

انْطَلَقَ أَبُو عَمْرٍو مَعَ جَمَاعَةٍ مِن قَبِيلَتِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ، وَلَكِنَّهُم لَمْ يَأْخُذُوا عَمْرًا مَعَهُمْ لِأَنَّهُ صَغِيرٌ، فَحَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا، وَمَكَثُوا هُنَاكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ يَتَعَلَّمُونَ فِيهَا بَعْضَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَحْكَامَ الْإِسْلَامِ؛ حَتَّى يُعَلِّمُوهَا قَوْمَهُم.

وَلَمَّا أَرَادُوا الْعَوْدَةَ لِقَبِيلَتِهِمْ ذَهَبُوا يوَدِّعونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ يَؤُمُّنَا فِي صَلَاتِنَا؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَكْثَرُكُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ[1].

عَادَ الْقَوْمُ إِلَى مَضَارِبِهِمْ، وَكَانَ عَمْرٌو يَنْتَظِرُ أَبَاهُ وأَقَارِبَهُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، فَهُوَ كَانَ مِنْ قَبْلُ يَنْتَظِرُ أَيَّ قَادِمٍ مِنَ الْمَدِينَةِ لِيَسْأَلَهُ عَنِ أَخْبَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، فَكَيْفَ الْآنَ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَبَاهُ وَأَقَارِبَهُ..!؟

طَارَ عَمْرٌو فَرَحًا لِمَا سَمِعَهُ مِنْ أَخْبَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَفَرِحَ كثيرًا لِإسْلَامِ قَوْمِهِ الَّذِين سَارَعُوا فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ بَيْنَ مَسَاكِنِهِمْ، وَلَمَّا بَحَثُوا عَنْ إِمَامٍ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا عَمْرًا لأَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ حِفْظًا وجَمْعًا لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَؤُمَّهُمْ فِي كُلِّ صَلَوَاتِهِم.

وَقَفَ الْغُلَامُ الصَّغِيرُ يَؤُمُّ الْمُسْلِمِينَ، وَصَارَ بَعْدَ الصَّلَاةِ يُعَلِّمَهُم مِمَّا يَحْفَظُ

(١) أكثركم جَمْعًا لِلْقُرْآنِ: أكثركم حفظاً له.

مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَذَاتَ يَوْمٍ اقْتَرَحَتْ إِحْدَى قرِيبَاتِهِ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِرِدَائهِ الْقَدِيمِ رِدَاءً جَدِيداً يَلِيقُ بِالْإِمَامِ الصَّغِيرِ، فَاشْتَرَوْا لَه عَبَاءَةً جَمِيلَةً لِيَلْبَسَهَا فِي صَلَاتِهِ، وعَبَّرَ عَنْ فَرْحَتِهِ عِنْدَمَا قَالَ: مَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنْ فَرْحَتِي بِتلْكَ الْعَباءَةِ.. إِنَّهَا بَرَاءَةُ الأَطْفَالِ، وَفَرْحَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَقْوَى الصَّالِحِينَ.

***

عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ

الفَتَى القَوِيُّ

الْأَصَالَةُ وَالشَّجَاعَةُ إِرْثٌ تَتَوَارَثُهُ الْأَجْيَالُ ضِمْنَ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ.. فَالشَّجَاعَةُ تَجْرِي فِي عُرُوقِ الْجَسَدِ، وَرُبَّمَا يَغْرِسُهَا الْأَبُ فـي أَبْنَائِـهِ، أَوِ الجدُّ فِي أحفادِهِ، فَأَبُو وَقَّاصٍ أَوْرَثَهَا لِوَلَدَيْهِ سَعْدٍ وَعُمَيْرٍ.

فَسَعْدٌ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ أَسْلَمُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمِنَ الَّذِينَ سَانَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَسَاعَدُوهُ فِي دَعْوَتِهِ فَكَانَ كَالسَّيْفِ فِي غِمْدِ[1] الْإِسْلَامِ، وَكَالرُّمْحِ فِي صُدُورِ الْكُفَّارِ.

وَلَمْ يَكْتَفِ سَعْدٌ بِإِسْلَامِهِ فَقَطْ؛ بَلْ صَارَ يَدْعُو بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَحْبَابِهِ، وَكَمْ كَانَتْ صَدْمَتُهُ كَبِيرَةً عِنْدَمَا عَارَضَتْ أُمُّهُ إِسْلَامَهُ، وَأَعْلَنَتْ إِضْرَابَهَا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى يَعُودَ سَعْدٌ إِلَى دِينِ آبائِهِ وأجدادِهِ.

لَمْ يَتْرُكْ سَعْدٌ دِينَ اللهِ إِرْضَاءً لِأُمِّهِ بَلْ أَخَذَ أَخَاهُ الصَّغِيرَ عُمَيْرًا إِلَى دِينِ اللهِ بِرَغْمِ مُصَابِ أُمِّهِ وَمَرَضِهَا.. وَنَزَلَ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ يُؤَيِّدُ مَوْقِفَ سَعْدٍ: **﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾** (لُقْمَان: ١٥).

وَصَارَ سَعْدٌ يُعَلِّمُ عُمَيْرًا الْقُرْآنَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْبُطولَةَ حَتَّى اطْمَأَنَّ عَلَيْهِ، وَوَثِقَ مِنْ إِيمَانِهِ، وَحَفِظَ الصَّغِيرُ آياتِ اللهِ الَّتِي كانَتْ تَتَنَزَّلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا أَنْ يَحْفَظَهَا سَعْدٌ حَتَّى يُعَلِّمَهَا لأخِيهِ الصَّغِيرِ، وَلَمْ يَكْتَفِ عُمَيْرٌ بِهذا بَلْ صَارَ يَذْهَبُ كلَّ يومٍ لَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، يَسْتَمِعُ إِلَى الْكَلَامِ الْعَذْبِ الْجَمِيلِ، يَسْتَمِعُ إِلَى أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ، وَمَا أَجْمَلَهَا مِنْ أَحَادِيثَ!.

(١) الغمد: بيت السيف.

جَاءَتِ الأَخْبَارُ بأَنَّ الْمُشْرِكِينَ فِي طَرِيقِهِمْ إلى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ لِلْقَضَاءِ عَلَى دَوْلَةِ الإِسْلَامِ والْمُسْلِمِينَ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ يُجَهِّزُ لَهَا، وَالْمُسْلِمُونَ يَتَسَارَعُون إِلَى أطرافِ المدينةِ عند « آبار السقيا »[1] حَيثُ الاستعدادُ والتجهيزُ لملاقاةِ المشركينَ.

هَبَّ عُمَيْرٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَلَكِنَّهُ فَجْأَةً صَارَ يَتَوَارَى عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى لَا يَرَاهُ.. وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ لَمَحَهُ، نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِ وَالشَّفَقَةُ فِي قَلْبِهِ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ الصَّغِيرِ، وقَالَ لَهُ: مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ؟ إِنَّكَ صَغِيرٌ!.

فَقَالَ عُمَيْرٌ: أُرِيدُ أَنْ أَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ!.

وَبَعْدَ مُحَاوَلاتٍ عَدِيدَةٍ، أَمَرَهُ بِأَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ، كَمَا أَمرَ مَنْ هُمْ فِي مثْلِ سِنِّهِ، فَصَارَ عُمَيْرٌ يَبْكِي، وَلَكِنْ دُون جَدْوَى..

وَبَيْنَمَا هُوَ عَائِدٌ إِلَى بَيْتِهِ بَعْدَمَا أَعَيَتْهُ الْحِيلَةُ فِي الْبَقَاءِ رَآهُ أَخُوهُ سَعْدٌ، فَطَلَبَ عُمَيْرٌ مِنْهُ أَنْ يَتَشَفَّعَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ فَفَعَلَ سَعْدٌ مَا أَرَادَ عُمَيْرٌ، وَسَمَحَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَبدأَ الإسْتِعْدَادُ لِلتَّدْرِيبِ وَحَمْلِ السِّلاحِ، وَصَارَ سَعْدٌ يَبْحَثُ لَهُ عَنْ حَمَّالَةِ سَيْفٍ صَغِيرَةٍ تَنَاسِبُهُ.. إِذْ لَمْ يَتَجَاوَزْ عُمْرُهُ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا، وَحَمَّالَاتُ السُّيوفِ كُلُّهَا كَبِيرَةٌ، فَأَخَذَ سَعْدٌ يَعْقِدُ[2] الْحَمَّالَةَ عِدَّةَ عُقَدٍ حَتَّى صَغُرَتْ، عِنْدَها وَضَعَ السَّيفَ بِها، وَطَارَ فَرِحًا، أسرعَ يَلْتَحِقُ بِالْغَزْوَةِ، وَوَصَلَ إلى بَدْرٍ،

(١) آبار السقيا، أو بيوت السقيا : تقع إلى الجهة الجنوبية الغربية من المسجد النبوي وبالقرب منها اليوم بقايا محطة القطار.

(٢) يَعْقِد: يربطُ ويصغِّرُ.

وَدَارَتِ الْمَعْرَكَةُ وَالْتَهَبَ وَطِيسُهَا[1]، وَنَظَرَ سَعْدٌ إِلَى أَخِيهِ فَرَآهُ يُبْلِي بَلَاءً حَسَنًا، وَانْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ، وَنَالَ عُمَيْرٌ مُكَافَأَتَهُ الْكُبْرَى؛ إِنَّهَا الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَرَحِمَ اللهُ عُمَيْرًا وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ.

***

(١) وَطِيسُهَا : شدتها

عُمَيرُ بْنُ سَعْدٍ

غُلامٌ نزلَ بِهِ قُرْآنٌ

أَسْلَمَ سَعْدٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ الأَوَائِلِ، وَشَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَ لَقَبُهُ القَارِئَ؛ لِصَوتِهِ الْعَذْبِ فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

لَمْ يَكْتَفِ سَعْدٌ بِإِسْلَامِهِ وَحْدَهُ، بَلْ أَخَذَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينِ اللهِ، وَبَدَأَ بِبَيْتِهِ فَعَرَضَ الْإِسْلَامَ عَلَى ابْنِهِ الصَّغِيرِ عُمَيرٍ.

نَطَقَ الْغُلَامُ الصَّغِيرُ بِالشَّهَادَتَينِ، فَصَحِبَهُ أَبُوهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

فَبَايَعَهُ، وَمِنْ يَوْمِهَا أَحَبَّ عُمَيرٌ مَجَالِسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَارَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَبادِئَ الْإِسْلَامِ، وَمَكَارِمَ الأخلاقِ، وَقَوْلَ الْحَقِّ.

لَمْ يَفْرَحِ الْغُلَامُ الصَّغِيرُ بِوَالِدِهِ كَثِيرًا، فَرَحَلَ سَعْدٌ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ، وَابْنُهُ عُمَيرٌ لَمْ يَتَجَاوَزِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ.

وَمَا لَبِثَتْ أُمُّ عُميرٍ أَنْ تَزَوَّجَتْ مِنْ رَجُلٍ مَعْرُوفٍ بَيْنَ الْعَرَبِ بِالْقُوَّةِ وَالشَّكِيمَةِ، وَكَانَ مِنْ زُعَمَاءِ الْعَرَبِ، فَدَخَلَ الْإِسْلَامَ ظَاهِراً، وَهَذَا الرَّجُلُ يُدْعَى (جُلَّاسَ بْنَ سُويدٍ).

لَمْ يَنْقَطِعْ عُمَيرٌ عَنْ مَجَالِسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا مَا نَدَرَ، فَقَدْ أَحَبَّ الرَّسُولَ؛ لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيهِ رَسُولًا وَأَبًا وَمُرَبِّيًا.

وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ عُمَيرٌ يَجْلِسُ مَعَ زَوْجِ أُمِّهِ سَمِعَهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَقُولُ: (لَئِنْ كَانَ الرَّجُلُ صَادِقًا، لَنَحْنُ أَشَرُّ مِنَ الْحُمُرِ!).

سَمِعَ عُمَيرٌ هَذِهِ الْعِبَارَةَ، وَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يَسْمَعْهَا، وَصَارَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ،

مَاذَا يَفْعَلُ؟ أَيَظَلُّ صَامِتًا عَلَى مَضَضٍ مَعَ رَجُلٍ تَكَلَّمَ بِسُوءٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْ يَنْقُلُ مَا سَمِعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَادِقًا؛ لِأَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَغْدِرَ أَحَدٌ بِخَيْرِ النَّاسِ!!؟

ظَلَّ عُمَيرٌ أَيَّامًا لَا يَعْرِفُ النَّوْمَ، وَأَصَابَهُ قَلَقٌ أَرَّقَهُ، وَذَاتَ يَوْمٍ، قَالَ لِجُلَّاسٍ: (وَاللهِ يا جُلَّاسُ، إِنَّنِي أُحِبُّكَ، وَلَقَدْ قُلْتَ: مَقَالَةَ سُوءٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَدْرِي مَاذَا أَفْعَلُ!؟ سَأُبَلِّغُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا قُلْتَ.

وَانطَلَقَ عُمَيرٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ؛ فَأَخْبَرَهُ بِمَا سَمِعَ، وَحَلَفَ لَهُ.

بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَلَبِ الْجُلَّاسِ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْخَبَرِ: فَأَنْكَرَ أَنَّهُ قَالَ، وَحَلَفَ بِاللهِ كَاذِبًا، وَكَادَ جُلَّاسٌ أَنْ يَغْلِبَ عُمَيْرًا بِحُجَّتِهِ وَكَلَامِهِ، وَانْقَضَى الْمَجْلِسُ.

إِحْتَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ يُصَدِّقُ مِنْهُمَا، فَكِلَاهُمَا يَحْلِفُ بِاللهِ.. أَيُصَدِّقُ غُلَامًا يَافِعًا أَمْ رَجُلًا مَشْهُورًا بَيْنَ الْعَرَبِ، وَلَهُ مَكَانَتُهُ!؟.

عَادَ عُمَيرٌ إِلَى بَيْتِهِ حَزِينًا بَعْدَمَا سَمِعَ عِبَارَاتِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ مِن بَعْضِ الرِّجَالِ الَّذِينَ شَهِدُوا الْمُخَاصَمَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَادَ كَاسِفَ الْبَالِ خَائِفًا أَنْ يُصَدِّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَمَّهُ جُلَّاسًا؛ فَيَكُونَ فِي مَوْقِفٍ لَا يُحْسَدُ عَلَيْهِ، وَخَشِيَ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ، وَلِمَ لَا؟ فَهُوَ يَعِيشُ مَعَهُ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ، وَمَرَّتْ أَيَّامٌ قليلةٌ وَعُمَيرٌ فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا، فَهُوَ فِي دَوَّامَةٍ مِنَ الْقَلَقِ وَالرَّهْبَةِ، وَصَارَ يَدْعُو اللهَ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَظْهَرَ الْحَقُّ وَيُبَرِّئَهُ.

وَجَاءَتْ كَلِمَةُ الْحَقِّ كَمَا دَعَا عُمَيرٌ، وَنَزَلَ جبريلُ « عَلَيْهِ السَّلَامُ » يُبَلِّغُ مُحَمَّدًا ﷺ بِبَرَاءةِ عُمَيرٍ، إِذْ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ (التَّوبَةُ: ٧٤).

سَمِعَ عُمَيْرٌ بَرَاءَتَهُ تَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَطَارَ فَرَحًا، وَأَخَذَ يَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى فَضْلِهِ، وَصَارَتْ أَفْوَاهُ الْمُسْلِمِينَ تُرَدِّدُ قَوْلَهُ تَعَالَى؛ لِتُعْطِيَهُ شَهَادَةً عَلَى صِدْقِهِ.

عِنْدَهَا ذُهِلَ جُلَّاسٌ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ افْتَضَحَ وَانْكَشَفَ أَمْرُهُ، وَظَهَرَ كَذِبُهُ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُمُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، فَأَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُنْكَسِرًا ذَلِيلًا قَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ مَظَاهِرُ النَّدَمِ وَالشُّعُورِ بِالذَّنْبِ. سَمِعَ الآيَاتِ الْمُنَزَّلَةَ، وَهِيَ تُتْلَى عَلَيْهِ حَتَّى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (التَّوْبَةُ: ٧٤).

تَقَدَّمَ مُعْتَذِرًا مُبْدِيًا أَسَفَهُ وَنَدَمَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَأَعْلَنَ عَلَى الْمَلأِ تَوْبَتَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ تَصَرُّفَ عُمَيْرٍ كَانَ خَيْرًا وَبَرَكَةً لَهُ.

وَأَحَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُمَيْرًا لِصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ، قَالَ لَهُ: (يَا غُلَامُ، وَفَتْ أُذُنُكَ، وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ).

التَّلامِيذُ الْيَهُودُ

الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ

الْأَيَّامُ تَمْضِي، وَالْحَالُ تزدادُ سُوءًا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ.. الْقَوْمُ لَا يَعْتَبِرُونَ وَلَا يَتَّعِظُونَ بِمَنْ سِوَاهُمْ..!! وَكُلَّمَا ظَهَرَ دَلِيلٌ جَدِيدٌ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ازْدَادَ الْقَوْمُ جَفَاءً لَهُ، وَابتعَدُوا عَنْهُ..

وَاعَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ..!!

تَتَمَلَّكُ الْحَيْرَةُ أُولَئِكَ الْفِتْيَةَ الَّذِينَ انْتَظَرُوا إِسْلَامَ قَوْمِهِمْ طَوِيلًا، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى..

وَيَتَذَكَّرُ الْفتيانُ الثَّلَاثَةُ مَا تَنَاقَلَهُ عُلَمَاؤهُمْ عَنِ ابْنِ الْهَيْبَانِ... يُفَكِّرُ أَسَدُ بْن عُبيدٍ بِمَا آلَ إِلَيْهِ حَالُ الْيَهُودِ.. يَعْبَثُ بِعُودٍ فِي الْأَرْضِ يَخطُّ خُطُوطًا مُعْوَجَّةً، وَذِهْنُهُ مَعَ وَصِيَّةِ ابْنِ الْهَيْبانِ..

يَلْتَفِتُ نَحوَ الْأَخَوَيْنَ ثَعْلَبَةَ وَأُسَيْدٍ اِبْنَي سَعْيَةَ..

- كُلُّهُمْ يَعرِفُونَ ابْنَ الْهِيْبانِ، الرَّجلَ الصَّالحَ العَالِمَ التَّقِيَّ الوَرِعَ..

الذِي تَنَبَّأَ بِمُحَمَّدٍ.. وَكُلُّهُمْ يُدْرِكُونَ حَقِيقَةَ مُحَمَّدٍ.

يَنْتَفِضُ ثَعْلَبَةُ..

- إِلَى مَتَى الِانْتِظَارُ.. الْحَقِيقَةُ غَدَتْ بِوُضُوحِ الشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ..

يُهَدِّئُ أَسَيْدٌ مِنْ رَوْعِهِمَا..

- عَلَى رِسْلِكُمَا[1] قَلِيلًا حَتَّى نَعْرِفَ مَاذَا سَيَحْدُثُ لِقَوْمِنَا بَعْدَ هَزِيمَةِ الْأَحْزَابِ..

(١) عَلَى رِسْلِكُمَا: رويداً رويداً.

يَرْمِي أَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ بِالْعُودِ، وَيُقْبِلُ عَلَى الأَخَوَيْنِ:

- كَانَ ابْنُ الْهَيْبَانِ قَدْ أَوْصَانَا بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ.. وَمَاتَ وَهُوَ يُحَذِّرُ مِنْ مُعَادَاتِهِ.. وَذَكَّرَنَا بِمَا سَيَلْحَقُنَا مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ وَالسَّبْيِ إِنْ نَحْنُ صَدَدْنَا عَنْ سَبِيلِ اللهِ.. وَهُوَ أَعْلَمُ الْيَهُودِ بِأَمْرِ نُبُوَّتِهِ.. جَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مُخَلِّفًا وَرَاءَهُ النَّعِيمَ لِيَعِيشَ هُنَا فِي بِلَادِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ بُغْيَةَ لِقَاءِ الرَّسُولِ الْجَدِيدِ وَاتِّبَاعِهِ.. ثُمَّ هَا نَحْنُ نَقْلِبُ لِمُحَمَّدٍ ظَهْرَ الْمِجَنِّ[1].. وَنَرْمِيهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ..!!

(يَهُبُّ الْغُلَامَانِ وَاقِفَيْنِ.. يَسْبِقُ ثَعْلَبَةُ أَخَاهُ فِي الْحَدِيثِ).

- وَلِمَ لَا نَتَّبِعُهُ نَحْنُ..؟!!

(يَتَهَلَّلُ وَجْهُ أَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ).

- هَذَا مَا أَرْمِي إِلَيْهِ..

يُقْبِلُ أُسَيدٌ نَحوَهُمَا وَيَدْعُوهُمَا لِلتَّرَيُّثِ[2].

- أَخْشَى أَنْ يَفْتِكَ بِنَا قَوْمُنَا..!!

(يُطَمْئِنُهُ أَسَدٌ).

- لَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ يَا ابْنَ سَعْيَةَ!!.. إِنَّهُمُ الآنَ مُنْشَغِلُونَ بِمَا سَيَلْحَقُهُمْ عَلَى أَيْدِي مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَتِيجَةَ غَدْرِهِمْ وَنَكْثِهِمْ بِالْعَهْدِ..

(يَقْطَعُ حَدِيثَهُمْ صَوْتُ مُنَادٍ جَاءَ بِالنَّذِيرِ).

(١) نَقْلِبُ لِمُحَمَّدٍ ظَهْرَ الْمِجَنِّ: أي نبتعد عنه وننكره، والمجن هو الترس الذي يحتمي به المقاتل من ضربة السيف أو الرمح.

(٢) للتريث: للتمهل.

- يَا قَوْمُ.. يَا قَوْمُ!.. إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ يُحَاصِرُونَ حِصْنَنَا[1]..

(تَتَرَدَّدُ أَصْدَاءُ الصِّيَاحِ وَاللَّغَطِ[2] فِي جَنَبَاتِ الْحِصْنِ..تَذْهَلُ النِّسَاءُ عَنْ أَطْفَالِهِنَّ.. يُهْرَعُ الرجَالُ لِبَيْتِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ يَسْتَشِيرُونَهُ فِي الَّذِي أَلَمَّ بِهِمْ وَاعْتَرَاهُمْ.. يَسْرِي الْخَوْفُ وَالرُّعْبُ فِي النُّفُوسِ.

(يَضْرِبُ ثَعْلَبَةُ بِقَبْضَتِهِ فِي كَفِّهِ)..

- لَا مَجَالَ لِلتَّأْخِيرِ.. يَجِبُ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا..

(يُمْسِكُ أَسَدٌ بِيَدَيْهِمَا)..

- هَيَا بِنَا إِلَى بَيْتِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ.. إِنَّهَا فُرْصَتُنَا..
- وَمَاذَا سَنَفْعَلُ..؟!

- نُذَكِّرُ الْقَوْمَ بِمَا قَالَهُ ابْنُ الْهَيْبَانِ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ مُحَمَّدًا..

- فِي هَذَا مُخَاطَرَةٌ كَبِيرَةٌ..

- لَا تَخَافَا؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يُؤْذُونَنَا..

(وَيَخْتَرِقُ ثلاثَتُهُمْ جُمُوعَ الْحَاضِرِينَ الَّذِينَ تَمَلَّكَهُمُ الْفَزَعُ لِيَصِلُوا إِلَى مَجْلِسِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ.. يَقِفُونَ قَرِيبًا مِنْهُ)..

- يَا قَوْمُ!.. أَلَا تَذْكُرُونَ مَا قَالَهُ ابْنُ الْهَيْبَانِ وَهُوَ أَعْلَمُ الْيَهُودِ؟!!

(يُصَابُ الْقَوْمُ بِالْوُجُومِ.. يَكْثُرُ اللَّغَطُ بَيْنَهُمْ.. يَلْتَفِتُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، يَتَكَلَّمُ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ) :

(١) الحصن: القلعة المنيعة.

(٢) اللّغط: اختلاط الأصوات وعدم وضوحها

- مَاذَا تَعْنُونَ وَيْحَكُمْ؟!

- أَلَمْ يَذْكُرْ لَكُمْ صِفَةَ مُحَمَّدٍ؟! أَلَمْ يأْمُرْكُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَيُحَذِّرْكُمْ مِنْ مُحَارَبَتِهِ!؟ وَيْحَكُمْ مَاذَا تَقُولُونَ..!؟ أَلَيْسَ هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنَ الْهَيْبانِ؟!!

- بَلَى إِنَّهُ هُوَ بِصِفَتِهِ الَّتِي وُصِفَ لَنَا.. وَأَنْتُمْ أعلَمْتُمُونا بِذَلِكَ.. فوَاللهِ لَا مَخْرَجَ لَكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ وَالْإِذْعَانُ لَهُ..

وَيَرِدُّ صَنَادِيدُهمْ[1]:

- أَتُرِيدُونَ مَنَّا أَنْ نَكُونَ أَتْبَاعًا لَمُحَمَّدٍ!؟ وَاللهِ لَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا!!

(وَيَتْرِكُ الْفِتْيَةُ قَوْمَهُمْ، وَيَتَسَلَّلُونَ مِنَ الْحِصْنِ لَيْلًا.. وَيَمْضُونَ نَحْوَ خَيْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.. وَيجْلِسُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ يُرَدِّدُونَ الشَّهادتينِ:

أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ...

وَتَغْمُرُ الْفَرَحَةُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِنَجَاةِ هَؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ..، وَيُكَبِّرُ الصَّحَابَةُ لِهَذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ..، وَيَنْزِلُ الْوَحْيُ عَلَى النَّبِيِّ الْأَمِينِ:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾. (آل عمران، ١١٣).

***

(١) صَنَادِيدُهمْ: زعماؤهم القُساة.

مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ

الْمُعَلِّمُ الْمُنْتَدَبُ إِلَى يَثْرِبَ

كَانَتْ أُمُّهُ « خُنَاسُ » مَيْسُورَةَ الْحَالِ، غَنِيَّةً، تَمْلِكُ الدُّورَ الْكَثِيرَةَ وَالْبَسَاتِينَ الْغَنَّاءَ، فَأَحَبَّتْ أَنْ يَنْشَأَ ابْنُها مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مُدَلَّلًا مُنَعَّمًا بَعِيدًا عَنْ شَظَفِ الْعَيْشِ، فَاشْتَرَتْ لَهُ أَجْمَلَ الثِّيَابِ، وعَطَّرَتْهُ بِأَغْلَى الْعُطُورِ، وَكَانَتْ تُسَرِّحُ شَعْرَهُ بِشَكْلٍ جَمِيلٍ؛ لَا تَجِدُ لَهُ مَثِيلاً بَيْنَ أَطْفَالِ مَكَّةَ، حَتَّى اشْتُهِرَ وَصَارَ حَدِيثَ أَهْلِ مَكَّةَ، لاسِيَّما شَبَابُ قُرَيْشٍ وَصَبَايَاهَا.

كَبِرَ مُصْعَبٌ وكَبِرَتْ مَعَهُ الصِّفَاتُ الْجَمِيلَةُ، فَهُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى رِقَّتِه وتَنَعُّمِهِ، كَانَ عَذْبَ الصَّوْتِ، حُلْوَ الحَدِيثِ، لَا تَكَادُ الْعَيْنُ تَرَاه حَتَّى تَهْوَاهُ النَّفْسُ، ولا يَكادُ صَوْتُهُ يَقَعُ فِي الْأُذُنِ حَتَّى يَصْبُو إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَامْتَازَ بِصِفَاتٍ عَرَبِيَّةٍ أَصِيلَةٍ، أَحَبَّتْ خُنَاسُ غَرْسَهَا فِي نَفْسِ ابْنِهَا الْمُدَلَّلِ، فَعَرَفَ الصِّدْقَ وَالْأَمَانَةَ، وَحُبَّ الْآخَرِينَ، وَالدِّفَاعَ عَنِ الْمَظْلُومِينَ، كانَ سَمْحَ الْخُلُقِ، رَضِيَ النَّفْسِ، صَافِيَ الطِّبَاعِ، قويَّ الشَّكيمةِ.

بَزَغَ فَجْرُ الْإِسْلَامِ، وَحَدِيثُ مَكَّةَ صَارَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ، وَانقَسَمَ أَهْلُ مَكَّةَ إِلَى فَرِيقَيْنِ، فَرِيقٍ وَهُوَ الْأَكْبَرُ ضِدَّ مُحَمَّدٍ، وَفَرِيقٍ يَضُمُّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ وَالضُّعَفَاءَ وَبَعْضَ الأَغْنِيَاءِ الصَّادِقِينَ وَالْحُكَمَاءِ؛ وَهُم قِلَّةٌ مَعَ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتِهِ.

لَمْ يَخْتَرْ مُصْعَبٌ كثيرًا، ولَمْ يَتَرَدَّدْ بالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ لأنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي امْتَازَ بِهَا جَعَلَتْهُ يُسْرِعُ إِلَى دَارِ الأَرْقَمِ بْنِ الأَرْقَمِ لِيَلْقَى رَسُولَ اللهِ هُنَاكَ وَيَنْطِقَ الشَّهَادَتَيْنِ...، وَيَفْرَحُ الْمُسْلِمون بِإِسْلَامِ هَذَا الْفَتَى الْغَنِيِّ الْمَيْسُورِ الطَّيِّبِ الصَّدُوقِ.

وَيَكْتُمُ الْفَتَى إِسْلَامَهُ مَخَافَةَ أَنْ تُكْرِهَهُ أُمُّهُ عَلَى الرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِ، وَلَعَلَّهُ كَانَ حَرِيصًا أَيْضًا عَلَى أَلَّا تَنْقَطِعَ مَعُونَتُها لَه، فَقَدْ كَانَ يَجِدُ فِي تِلْكَ الْمَعُونَةِ مَا قَدْ يَنْفَعُ بِهِ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ فِي الدِّينِ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَهْنأْ بِذَلِكَ إِلَّا أَيَّامًا معدودةً.

فقَدْ عَلِمَتْ قريشٌ بِأَمْرِهِ كَمَا عَلِمَتْ أُمُّهُ بِهِ، وَمَا أَسْرَعَ مَا تنكَّرَتْ لَهُ! وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ الصَّاعِقَةُ لَهَا فَطَارَ صَوَابُهَا وَأَخَذَتْ تَصْرخُ:

أَيَصْبُو[1] مُصَعَبٌ!؟ كَيْفَ يَكُونُ هَذَا، لَمْ أَحْرِمْهُ شَيْئًا مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا!!

فَلَمَّا رأَتْهُ ثَابِتًا قَوِيًّا حَبَسَتْه فِي غُرْفَةٍ مُحْكَمَةِ الْإِغْلَاقِ.. وَكُلَّ يَوْمٍ تُخَاطِبُهُ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ: أَخْبِرْنِي يَا بُنَيَّ، أَمَا زِلْتَ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ؟ ويردُّ عَلَيْهَا بصوتٍ خافِتٍ: نَعَمْ يَا أُمَّاهُ! وأَرْجُو لَكِ الْهِدَايَةَ.

وَمَا أَسْرَعَ مَا مَسَّهُ الضُّرُّ! وَثَقُلَتْ عَلَيْهِ أَعْبَاءُ الْحَيَاةِ! هُنَالِكَ أَصْبَحَ الْفَتَى كَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقِيرًا بائِسًا مَسْجُونًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ صَبُورًا يَجِدُ فِي الْإِسْلَامِ عِزَّةً ورِفْعَةً.

وَمِنْ غُرْفَتِهِ الْبَائِسَةِ يَعْلَمُ مُصَعَبٌ بِهِجْرَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ إِلَى أَرْضِ النَّجَاشِيِّ، ويُفَكِّرُ بِالْهِجْرَةِ، فالثُّلَّةُ[2] الْمُؤْمِنَةُ مَا زَالَتْ تَسْتَعِدُّ لِلرَّحِيلِ، وَيَتَمَكَّنُ الْفَتَى فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وَأُمّهُ تَغُطُّ فِي نَوْمِهَا مِنَ اللِّحَاقِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَيَصِلُ هُنَاكَ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا انْتَشَرَتْ إِشَاعَةُ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَحَمْزَةَ عمِّ الرَّسُولِ، يَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ، وَيَلْتَحِقُ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ.

(١) يصبو: يترك دين آبائه وأجداده.

(٢) الثلة: جماعة من الناس، ثلة من الأولين وثلة من الآخرين

أَقَامَ مُصْعَبٌ عِنْدَ الرَّسُولِ خوفًا مِنْ أُمِّهِ، وَصارَ يَحْفَظُ كلَّ مَا يَنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَيُعْجَبُ رَسُولُ اللهِ بِصَوْتِهِ النَّدِيِّ الْجَمِيلِ، وَيُرْسِلُهُ إِلَى يَثْرِبَ مَعَ أَصْحَابِ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ الأُولَى وَتَكُونُ مُهِمَّتُهُ سَفِيرَ رَسُولِ اللهِ وَمُعَلِّمَ الإِسْلامِ هُنَاكَ.. يَتْلُو الْقُرْآنَ للناسِ، وَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ الدِّينِ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ فِي يَثْرِبَ إِلَّا تُلِيَتْ بِهِ آيَاتُ اللهِ، ويُلاقِي مصعبٌ بَعْضَ الْمَصَاعِبِ مِنَ الْكَارِهِينَ لِلإِسْلَامِ فَيَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ[1].

اِقْتَرَبَ مَوْسِمُ الْحَجِّ، وَيَرْجِعُ مُصْعَبٌ إِلَى مَكَّةَ مَعَ ثَلَاثَةٍ وَسَبْعِينَ مُسْلِمًا وَامْرَأَتَيْنِ، وَمَضَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَخَلَا بِهِ، يُعْلِمُهُ بِانْتِشَارِ الدِّينِ فِي أَغْلَبِ بُيُوتِ يَثْرِبَ، وَيُخْبِرُهُ بِالْمُحِبِّينَ وَالْكَارِهِينَ، وبِطَبَائِعِ الْيَهُودِ، وَيَسْتَمِعُ النَّبِيُّ ﷺ وهوَ رَاضٍ، ويُقَابِلُ الرَّسُولُ الوَفْدَ عِنْدَ العَقَبَةِ، ويَشْتَدُّ رِضَاهُ.

وَتَعْلَمُ خُنَاسُ (أُمُّ مُصْعَبٍ) بِقُدومِ ابْنِهَا، فَتَبْعَثُ إِلَيْهِ مَنْ يَلُومُهُ فِي هَذَا الَّذِي تَرَاهُ عُقُوقًا، وَيَذْهَبُ إِلَيْهَا بَعْدَ حِينٍ، وَلَا يَعْبأُ بِلَوْمِها فَقَدْ صَارَ شَابًّا يافِعًا، وَلَكِنْ يَدْعُوهَا إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيْهِ فَيَحْزَنُ عَلَيْهَا.

وَيَرْجِعُ مُصْعَبٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى يَثْرِبَ، وَيُتَابِعُ نَشْرَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيُهَاجِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى هُنَاكَ مَعَ صَاحِبِهِ (أبي بَكْرٍ)، وَيَسْتقبلُهُ مُصْعَبٌ وَالْمُسْلِمُونَ بِشَوْقٍ وَحَنِينٍ، وَيَجِدُ الرَّسُولُ ﷺ نَفْسَهُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَصَحْبِهِ.

وَهَا هُوَ رَمَضَانُ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ يُقْبِلُ.. وَيُقْبِلُ مَعَهُ جَيْشُ الْمُشْرِكِينَ ويلتَقِي الطَّرَفَانِ فِي بَدْرٍ، وَيَعْقِدُ رَسُولُ اللهِ اللِّوَاءَ لِمُصْعَبٍ، وَتَنْتَهِي الْغَزْوَةُ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَعُودُ مُصْعَبٌ إِلَى نَشْرِ الْقُرْآنِ بِصَوْتِهِ الْعَذْبِ الْجَمِيلِ وَيَدْخُلُ النَّاسُ فِي دِيْنِ اللهِ أَفْوَاجًا.

(١) يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل طمعًا في الأجر من الله.

حَتَّى إِذَا كَانَتْ وَقْعَةُ أُحُدٍ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ؛ تَقَدَّمَ مُصْعَبٌ بِاللِّوَاءِ، وَانْطَلَقَ كَالسَّهْمِ كَأَنَّهُ جَيْشٌ وَحْدَهُ أَوْ أُمَّةٌ بِأَكْمَلِهَا، وَيَخْتَرِقُ صُفُوفَ الْمُشْرِكِينَ فَيَتَفَرَّقُونَ عَنْ لِوَائِهِ، إلا ابْنَ قَمِئَةَ، فَيُقْبِلُ عَلَيْهِ فَيَضْرِبُ يَدَهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهَا، وَيَسْقُطُ اللِّوَاءُ، فَيَأْخُذُهُ مُصعَبٌ بِيَدِهِ الأُخْرَى فَتُقْطَعُ أَيْضًا، وَيَبْقَى اللِّوَاءُ مَرْفُوعًا، وقَدْ ضَمَّ عَلَيْهِ مُصعَبٌ عَضُدَيْهِ. ويُهاجِمُهُ ابْنُ قَمِئَةَ مَرَّةً ثَالِثَةً، فَيَنْفُذُ الرُّمْحُ فِي صَدْرِ مُصْعَبٍ، فَيَسْقُطُ وَيَسْقُطُ مَعَهُ اللِّوَاءُ.

انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ وَعَرفَ الْمُسْلِمُونَ قَتْلَاهُم، وَوُجِدَ مُصعَبٌ مُضرَّجًا فِي دِمَائِه، وَقَد عَفَّرَهُ التُّرَابُ، وَيَهُمُّ الْمُسْلِمون بِدَفْنِهِ فَلَا يَجِدُونَ لَه كَفَنًا، فاتَّفَقُوا عَلَى تَكْفِينِهِ بِثَوبِهِ، وَهُوَ ثَوبٌ رَثٌّ[1] قَصِيرٌ، إِنْ أَخْفَى الثوبُ رَأْسَهُ ظَهَرت رِجْلَاهِ، وإِنْ أَخْفَى رِجْلِيهِ ظَهَرَ رأسُهُ، وَالنَّبِيُّ يَرَى ذَلِكَ وَيَحْزَنُ عَلَى الفَتَى الَّذي تَرَكَ متَاعَ الدُّنيا وزِينَتَهَا، فَيَتْلُو الرَّسُولُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. (الأَحْزَاب:٢٣).

***

(١) رثٌ: قديم بالٍ.

مُعَاذٌ ومُعَوِّذٌ

(ابْنَا عَفْرَاءَ)

بَطَلَا غَزْوَةِ بَدْرٍ

بَطَلَانِ صَغِيرَانِ، بَلْ لَيْثَانِ شُجَاعَانِ تَرَبَّيَا فِي مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وترَعْرَعا فِي طَيْبَةَ الطَّيِّبَةِ، فَنَهَلَا مِنْ يَنْبُوعِ الْعَطَاءِ الَّذِي ارْتَوَى مِنْهُ أَهْلُ يَثْرِبَ التَّضْحِيَةَ وَالْإِيثَارَ.

اِسْتَنْشَقَا نَسِيمَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ لِدِيْنِ اللهِ، وَعَرَفَا مَعْنَى الْجِهَادِ وَحَلَاوَتَهُ ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ.

دَفَعَتْ بِهِمَا أُمُّهُمَا (عَفْرَاءُ بِنْتُ عُبَيْدٍ) « رَضِيَ اللهُ عَنْهَا » مَعَ أَبْنَائِهَا الْخَمْسَةِ الآخَرِينَ لِنُصْرَةِ الدِّينِ، وَلِلْمُشَارَكَةِ فِي فَاتِحَةِ الْمَعَارِكِ النَّبَوِيَّةِ ضِدَّ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَلِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيد مُسَطِّرَةً بِذَلِكَ صَفْحَةً نَاصِعَةً فِي الْفِدَاءِ، وَالتَّضْحِيَةِ مِنْ أَجْلِ نَشْرِ عَقِيدَةِ الْإِسْلَامِ وَمَبَادِئِ التَّوْحِيدِ.

عِنْدَمَا الْتَقَى جَيْشُ الْإِيمَانِ بِجَيْشِ الْكُفْرِ فِي بَدْرٍ وَثَبَ مُعَوِّذٌ « بِالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِهِ » مَعَ أَخِيهِ وَوثَبَ معهما عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، يُسَابِقُونَ الْأَبْطَالَ لَمُبَارَزَةِ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ.

وكانَ منْ عادةِ العربِ قبلَ بدءِ المعركةِ أنْ يتَبارزَ الشُّجعانُ مِنْهُمْ، فخرجَ منْ صَنَادِيدِ المشركينَ ثلاثةٌ هم: عتبةُ بنُ ربيعةَ، وابنُهُ الوليدُ، وأخُوهُ شيبةُ، وطلبوا المبارزةَ فخرج إليهمْ هؤلاءِ الأبطالُ الثلاثةُ مِنْ فتيانِ الأنصارِ .

وَلَمَّا عَرَفَهم عُتْبَةُ قَالَ: أَكْفَاءٌ كِرامٌ، وَلَكِنَّنَا نُرِيدُ أَكْفَاءَنا مِنْ بَنِي عَمِّنَا؛ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْوَرَاءِ، فَلَبَّوْا أَمْرَ نَبِيِّهِمْ ﷺ.

عندها خرجَ لهمْ حمزةُ بن عبد المطلبِ، وعليُّ بن أبي طالبٍ، وعبيدةُ بنُ الحارثِ، وَقَتَلُوا ثلاثَتَهمْ ، ولما رأتْ قريشٌ مَقْتَلَ قادتهِمْ هاجتْ وماجَتْ، وبدأتِ المعركةُ الكبرى.

لَقَدْ حَمِيَ الوَطِيسُ، وَالْمُسْلِمُونَ يَجُولُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِقُوَّةٍ وَثَبَاتٍ.. وَيَتَنَقَّلُ فِرْعَوْنُ الأُمَّةِ (أَبُو جَهْلٍ) بَيْنَ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدِ امْتَطَى صَهْوَةَ جَوَادِهِ مُخْتَالًا، قَدْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ.. يَتَعَالَى صُرَاخُهُ الْبَغِيضُ، وَيُزْبِدُ، وَيُرْعِدُ، وَيَتَهَدَّدُ، وَيَتَوَعَّدُ.. يُحِيطُ بِهِ جَمْعٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.. تَحْتَدِمُ الْمَعْرَكَةُ.. وَيَتَطَلَّعُ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَبِي جَهْلٍ فِي حِرَاسَتِهِ، وَيَقُولُونَ: أَبُو الْحَكَمِ لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ!..

هَلْ حَقًّا لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ؟!

وَأَيْنَ أُسُودُ الإِسْلَامِ الأَشَاوِسُ؟.. وَأَيْنَ الْعُظَمَاءُ الَّذِينَ تَخَرَّجُوا مِنْ مَدْرَسَةِ سَيِّدِ الشُّجْعَانِ، وَخَيْرِ الْبَرِيَّةِ؟!!

لَمْ يَعْرِفِ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ مَقْتَلَ أَبِي جَهْلٍ، سَيَكُونُ عَلَى يَدِ غُلَامَيْنِ صَغِيرَيْنِ.. فَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مُعَاذٌ ومُعَوِّذٌ لَمْ يَتَجَاوَزَا السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِمَا.. حَمَلَا سِلَاحَهُمَا، وَانْطَلَقَا إِلَى بَدْرٍ لِلدِّفَاعِ عَنْ دِينِ اللهِ الَّذِي ارْتَضَى لِعِبَادِهِ..

صُورَةٌ رَائِعَةٌ مِنْ بَيْنِ الصُّوَرِ الْحَيَّةِ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، رَوَاهَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ إِذْ قَالَ:

إِنِّي لوَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَيِ السِّنِ، فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَقْوَى مِنْهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ لِي سِرًا حَتَّى لَا يَسْمَعَ صَاحِبُهُ: يَا عَمُّ.. أَتَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: عَلِمْتُ أَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَمْ يُفَارِقْ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا. قَالَ: فَغَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ: مِثْلَهَا. فَعَجِبْتُ لِذَلِكَ..

سُرَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ "رَضِيَ اللهُ عَنْهُ » بِهَذَيْنِ الْبَطَلَيْنِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَقِفُ بَيْنَ أَسَدَيْنِ هَصُورَيْنِ مِنْ أُسُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

لَقَدْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُرِيد شَرَفَ قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ لِنَفْسِهِ دُونَ صَاحِبِهِ.. وأَكْرِمْ بهَا من مُنَافَسَةٍ! إِنَّهَا صُورَةٌ رَائِعَةٌ مِنَ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ..

وَأَحَبَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنْ يَنَالَ الغُلامَانِ شَرَفَ قَتْلِ عَدُوِّ اللهِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمَا ودَلَّهُمَا عَلَيْهِ.. فَانطَلَقَا كَالرِّيحِ، وابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا فأثخَنَاهُ حَتَّى سَقَطَ يَسْبَحُ فِي دِمَائِه، يَلْفِظُ أَنفَاسَهُ الأَخِيرَةَ، عِنْدَهَا وَثَبَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَائِلًا: الْيَوْمَ أَنْتَقِمُ مِنْكَ يَا عَدُوَّ اللهِ.. ثُمَّ حَزَّ رَأْسَهُ.

هَلْ أَبُو جَهْلٍ مُمْتَنِعٌ لَا يَخْلُصُ أَحَدٌ إِلَيْهِ؟

إِنَّهُ الْإِيمَانُ مِنْ غُلامَيْنِ يَافِعَينِ دَفَعَهُمَا لِلانْتِقَامِ وَالِانْتِصَارِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَانْجَلَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ عَنِ انْتِصَارٍ عَظِيمٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَتَشَتَّتَ شَمْلُ الْمُشْرِكِينَ،

وَتَفَرَّقُوا عَنْ قَتْلَاهُمْ مُنْهَزِمِينَ.. وحُمِلَ الشُّهَدَاءُ لِيُدْفَنُوا جَمِيعًا فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ الَّتِي شَهِدَتْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةَ الْخَالِدَةَ، وَكَانَ مُعَوَّذُ بْنُ عَفْرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ فِي عِدَادِ الشُّهَدَاءِ فِي أَوَّلِ لِقَاءٍ بَيْنَ الْحَقِ وَالْبَاطِلِ.

***

مَيْسَرَةُ ابْنُ صَاحِبَةِ العِقَالِ

مَيسَرَةُ شَهِيدٌ مِنْ بَيْتِ الشُّهَدَاءِ، اسْتُشْهِدَ أَبُوهُ فِي غَزْوَةٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ الظَّافِرَةِ، فَانطَلَقَتْ بِهِ أُمُّهُ مُسْرِعَةً إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَهُوَ يُجَهِّزُ جَيْشَهُ قَائِلَةً: أُرِيدُ أَنْ أَرَى زَوْجِي.

فَقَالَ لَهَا أُسَامَةُ: فِي أَيِّ فِرْقَةٍ مُنْتَظِمٌ.

فَأَجَابَتْهُ فِي زَهْوٍ: إِنَّهُ مَعَ الشُّهَدَاءِ، نَحْسَبُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ، لَقَدِ اسْتُشْهِدَ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ على حُدودِ الشَّامِ في جَيْشِ الإِسْلَامِ.

بَدَتِ الْحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِ الْقَائِدِ أُسَامَةَ وَسَأَلَهَا:

- كَيْفَ تَطْلُبِينَ مِنِّي أَمْرًا فَوْقَ قُدْرَتِي؟

قَالَتْ: لَوْ جَعَلْتَنِي جُنْدِيَّةً فِي جَيْشِكَ رُبَّمَا أَرَى زَوْجِي حِينَمَا يَرْزُقُنِي اللهُ الشَّهَادَةَ!!

قَالَ أُسَامَةُ: عُودِي إِلَى بَيْتِكِ، بَارَكَ اللهُ فِيكِ، وَفِي شَجَاعَتِكِ، فَلَدَيْنَا مِنَ الْجُنُودِ مَا يَكْفِي.

عِنْدَهَا قَالَتْ لَهُ: أَرْجُوكَ أَنْ تَنْتَظِرَنِي لَحْظَةً.

أَسْرَعَتْ إِلَى إِحْدَى الْخِيَامِ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ بِضَفِيرَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ قَصَّتْهُمَا مِنْ شَعْرِهَا، فَأَلْقَتْهُمَا إِلَيْهِ وَهِيَ تَقُولُ: اجْعَلْ مِنْهُمَا عِقَالًا لِفَرَسِكَ، وَسَتَعْرِفُ قَدْرَ شَجَاعَتِي.

اِحْتَارَ أُسَامَةُ فِيْ أَمْرِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الشُّجَاعَةِ.. وَأَخِيرًا سَمَحَ لَهَا أَنْ تَبْقَى مَعَ سَرِيَّةِ النِّسَاءِ لِخِدْمَةِ الْجَيْشِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَخَلَ عَلَى أُسَامَةَ غُلَامٌ صَغِيرٌ لَمْ يَتَجَاوَزِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

- أَيُّهَا الْقَائِدُ! أَرْجُوكَ أَنْ تَسْمَحَ لِي بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَعَسَى أَنْ أَنَالَ الشَّهَادَةَ لِأَرَى أَبِي فِي الْجَنَّةِ.

اِبْتَسَمَ أُسَامَةُ، وَقَالَ لَهُ: بَارَكَ اللهُ فِيكَ، عُدْ إِلَى أَهْلِكَ، وسَنَحْتَاجُكَ عِنْدَمَا تَكْبُرُ.

رَفَضَ الْغُلَامُ، وَأَصَرَّ عَلَى الْمُشَارَكَةِ فِي الْجِهَادِ، وَقَالَ لَهُ:

- لَقَدْ وَهَبَتْنِي أُمِّي للهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْحَقِّ فِي أَنْ يَقْبَلَ الْهِبَةَ أَوْ يَرُدَّهَا.

قَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اِبْنُ مَنْ أَنْتَ؟

فَقَالَ: أَنَا مَيْسرَةُ ابْنُ صَاحِبَةِ الْعِقَالِ.

وَرافَقَ مَيْسَرَةُ أُسَامَةَ بَعْدَ حِوَارٍ طَوِيلٍ شَرِيطَةَ أَنْ يَبْقَى فِي مُؤَخَّرَةِ الْجَيْشِ مَعَ أُمِّهِ..

تَحَرَّكَ الْجَيْشُ، وَوَصَلَ إِلَى حُدودِ الشَّامِ، وَاخْتَدَمَتِ الْمَعْرَكَةُ.. نَظَر مَيْسَرَةُ إِلَى الْبُطولَاتِ فَلَمْ يَجِدْ نَفْسَهُ إِلَّا فِي الْمُقَدِّمَةِ يَحْمِلُ سَيْفَهُ يَسُلُّهُ عَلَى الرُّومِ، وَاخْتَرَقَ صُفُوفَهُمْ نحو قائِدِهِمْ..، رَأَى جُنودُ الأَعْدَاءِ بُطُولَتَهُ وَاقْتِحامَهُ، فاجْتَمَعَ حَوْلَهُ عَدَدٌ مِنْ مُقَاتِلِي الرُّومِ يُرِيدُونَ صَدَّهُ ومُبَارَزَتَهُ..

رَأَتْهُ أُمُّهُ مِنْ بَعِيدٍ فَامْتَطَتْ جَوَادَهَا لِتَلْحَقَ بِهِ، وَرَأَتْهُ يُصَارِعُ الأَعْدَاءَ فَكَبُرَ فِي عَيْنَيْهَا، وَانْطَلَقَ بِهَا الْجَوَادُ حَتَّى صَارَتْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ، وَمَا أَنْ رَآهَا حَتَّى لَفَظَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْجِرَاحِ التي أَصَابَتْهُ، وَصَعِدَتْ رَوْحُهُ إِلَى بَارِئِهَا مَعَ الشُّهَدَاءِ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً.

لَمْ تَرَ أَمُّ مَيْسَرَةَ أَمَامَهَا إِلَّا دِمَاءَ الأَعْدَاءِ، وَظَلَّتْ تَفْتِكُ بِهِمْ دُونَ أَنْ تَشْعُرَ بِشَيْءٍ، وَهِي تَصْرُخُ: سَآتِيكَ يَا بُنَيَّ لِنَرَى وَالِدَكَ.. وَفَجْأَةً غَدَرَ بِهَا أَحَدُ الرُّومِ، فَسَقَطَتْ عَلَى الأَرْضِ مُكَبِّرَةً مُهَلِّلَةً..

وَانْتَشَرَ خَبَرُهَا بَيْنَ جُنُودِ أُسَامَةَ، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ لَهُمَا بِالشَّهَادَةِ وَالرَّحْمَةِ.

***

المصادر والمراجع

١- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ١٣٢٨هـ.

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير الجزري، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.

٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب (بهامش الإصابة)، ابن عبد البر، ١٣٢٨هـ.

٤-مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، ط٥، بيروت: دار القرآن الكريم.

٥- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري بك، ط/٢، مؤسسة علوم القرآن.

٦- رجال حول الرَّسُول، خالد محمد خالد، ط١، ٤, ١٤هـ - دار ثابت، مصر.
٧- صور من حياة الصحابة، د.عبد الرحمن رأفت الباشا، وزارة التعليم، الرياض.
٨- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ط٩، ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة.
٩- حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٩٨٧م.
١٠- سيرة النبي، لابن هشام، دار الفكر، ١٩٨١م.
١١- الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م.
١٢- الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار بيروت، ١٩٨٥م.
١٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.
١٤- فتية ولكن رجال، خليل الصمادي، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠١م.

الفهرس

الْمُعَلِمَ الأَوَّلُ	7
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ	19
الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ	27
الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ	33
عبدُ الله بنُ عَبَّاس	39
عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ	45
أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ	51
أَبُو مَحْذُورَةَ	57
أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ	65
أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ	71
أُسَيْدُ بْنُ ظُهَيْرٍ	79
الأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الأَرْقَمِ	83
البراءُ بْنُ عازِبٍ	89

أَمَةُ بِنْتُ خَالِدٍ	95
أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ	101
أبناءُ أُمِّ سَلَمَةَ	107
حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ	115
ذُو البِجادَيْنِ	123
رافعُ بنُ خَدِيج	129
زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ	135
زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ	143
سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ	151
سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ	159
سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ	163
طَلْحَةُ بْنُ الْبَرَاءِ	167
عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ	173
عَبْدُ الله بْنُ جَعْفَرٍ	179
عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ	189
عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ	195
عُمَيرُ بْنُ سَعْدٍ	201
التَّلامِيذُ الْيَهُودُ	207
مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ	213
مُعَاذٌ ومُعَوِّذٌ	219
مَيْسَرَةُ ابْنُ صَاحِبَةِ العِقَالِ	225
المصادر والمراجع	231

صدر للمؤلف

للمؤلف :

1 . سلسلة فتيان ولكن رجال(1-20) مكتبة العبيكان الرياض 1422هـ.

2 . سلسلة قصص من التاريخ (1-10) مكتبية العبيكان الرياض 1423هـ.

3 . سلسلة أطفال الحجارة (1-10) مكتبة الحضارة الرياض 1425هـ.

4 . 1200 سؤال وجواب عن فلسطين مؤسسة فلسطين للثقافة دمشق 2010

5 . 99 سؤال وجواب عن الذهب ، دمشق 2011

6 . تعلم العربية لغير الناطقين (3 مناهج) ، مؤسسة الوقف الرياض .

7 . ذكريات من مخيم اليرموك ، دار صفحات دمشق 2017

8 . معجم شعراء فلسطين ، دار صفحات دمشق 2018

9 . صلاح الدين وأسراب الحمام ، دار المكتبي ، دمشق 2019

10. سلسلة أنا أتعلم لغتي عدد 11 كتابا الرياض ، الناشر NEW CASTLE

11. عشرون يوما في يبوس،رواية للفتيان، تحت الطبع .

أطفال حول الرسول

صُورٌ نَاصِعَةٌ لأطفالٍ كرامٍ وفتيةٍ عُظَمَاءَ، عَاشُوا في مدرسة النُّبُوَّة، ونَهَلُوا منْ معينها، وتربَّوا في مدرستها، وتخرَّجوا رجالاً، نَشَرُوا العِلْمَ وَصَنَعُوا البُطولات، وبَنَوا الأمجادَ علَى حداثة أسْنانهم.

ومنْ هذه المدرسةِ النبويَّةِ الكبيرةِ اخترتُ ثُلَّةً منْ صغارِ الصَّحابةِ - رضوانُ اللهِ عليهمْ - جاءتْ في قصصٍ شيِّقةٍ جذَّابةٍ لعلَّ أولادَنا وشبابَنا يقتدُون بهمْ أوْ يتشبَّهون.

فتَشَبَّهُوا إنْ لَمْ تَكُونُوا مثْلَهُم إنَّ التَّشَبُّهَ بالكرامِ فَلاحُ

خليل محمود الصمادي

ISBN 978-603-03-7498-4
9 786030 374984

دار المعرفة للنشر والتوزيع
القاهرة - أمام مسجد عليش - خلف جامع الأزهر
هاتف: 01008584820 - 01111322668
البريد الإلكتروني: elmarefa@hotmail.com